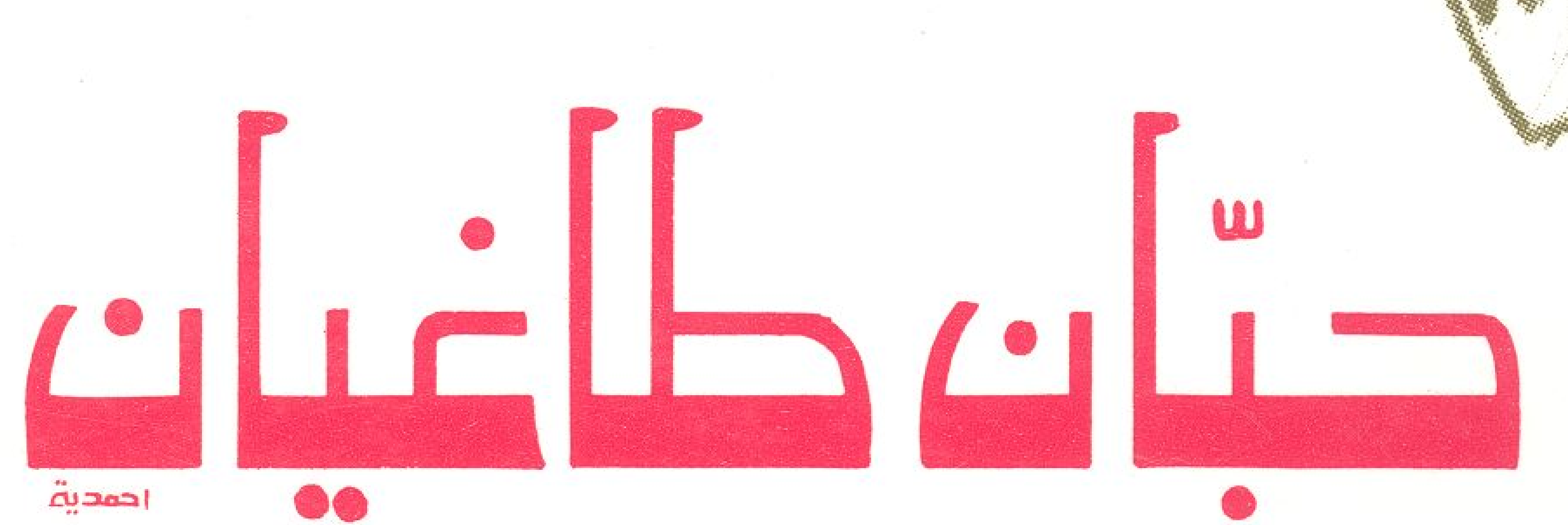
روايات من العالم



جونيشيرو تانيزاكي

ترجمة: جورج كعدي

قدّم له: هنري ميلر



حنان طاغيان



جونيشيرو تانيزاكي

حبّان طاغيان

ترجمة: جورج كعدي

قدّم له: هنري ميلر



١٩٩١

سلسلة روايات من العالم/ ٦

الكتاب	حبّان طاغيان
التأليف	جونيشيرو تانيزاكي
التقديم	هنري ميلر
الترجمة	جورج كعدي
الناشر	دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
	ص.ب. ١١/٣١٨١ ـ ت: ٠١/٣٠٥٥٢٠
التنضيد	شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.
الطبعة	الاولى ١٩٩١
تصميم الغلاف	نجاح طاهر

مقدّمة

بما أن لديّ ضعفاً مؤثّراً جداً إزاء كل ما هو يابانيّ فـإن القارىء يحسن صنيعاً بإضافة قليل من الملح على ما سأقوله. بدأ شغفي باليابان مع لافكاديو هيارن، يتبعه هـوكوزاي، أوتـامارو وهيروشيجيه، ثم الليدي مورازاكي (تاريخ الجنجي)، وسيشو، شاعر الريشة، من ثم باشو، باشو العظيم ومعلّمي الهايكو، وأخيراً سوزوكيه، آر. إتش. بلايث، مؤلّف اللامعقول: «الزن في الأدب الإنكليزي والكلاسيكيات الشرقية». بيد أنني أغذّي ضعفاً كبيراً نحو المرأة اليابانية في شكل خاص، تلك المرأة التي عظّمها جيداً «الكونت كيزرلينغ»، في «يوميات رحلة». أجل، تيك المرأة اليابانية التي تؤلّهها الجيشا. مذ بدأنا نستطيع مشاهدة الأفلام اليابانية تنامى شغفي. وبالنسبة إلى الأدب الياباني المعاصر، فبالكاد أعرف دزّينة مؤلفين، إلاّ أنّ كل الكتب التي وقعت بين يديّ أثارتني إلى أقصى درجة.

إن التأثير الذي يولّده فيّ الفنّ والأدب اليابـانيان هو مزيج. تارة يكون لديّ شعور بأنّ ما أقرأه يجري في كوكب آخر ويحكي عن نوع تمّ اكتشافه للتوّ، وطوراً أكابد الشعور نفسه الذي عرفته مع الصين:

أنّ كلّ ذلك أليف لديّ، أنّ ما أراه، ما أسمعه، ما أحسّ به هو التعبير عينه للإنسان الأصليّ، الأكثر إنسانية، الأكثر كونيّة من بين كل الأعراق على الأرض.

إنّها قصص حبّ تلك الحقبة أو الماضي التي تحرّك شعوري في الشكل الأعمق. أشعر لأسباب يصعب تحليلها أو تفسيرها أن تراجيديتها ناتجة من منابع ليست منابعنا. المستوى الذي تستقرّ عنده لا يمكن إلاّ أن يذكّرنا بتلك الهيامات التي أضحت أسطورية عبر روايات «الطاولة المستديرة». أعني في هذا أنها بمرتبة أرفع بكثير من دراميانتا البسيكولوجية المعاصرة. بيد أن محتواها البسيكولوجي، ويا للغرابة، هو في التحديد الذي يضعها في مقدّمة الأدب الغراميّ. نتبع تلك الحكايات التراجيدية (المأساوية) بقلوبنا أكثر منها بروحنا. لعلّه يجدر بي القول بأثقب مشاعرنا، إذ أنها تبلغ عبر مسلك العشّاق أعماقاً من الحنان ومن الوحشية لم يبلغها الأدب الغربي أبداً تقريباً. ليس لأن أدبنا العاطفيّ يجهل تلك العناصر كلّياً، إنّما لكوننا لا نزال بالأحرى أولاداً في عالم الحبّ الغامض والذي لا ينضب. فجرائم الولع في الصحف التي تعلّمنا الوجود تظهر لنا حدود مخيّلة كبار روائيينا.

قرأت منذ بضع سنوات «فتيات الجيشا الثلاث» لكيكو ياماتا. لم أقرأ قطّ قصّة أجمل، أكثر هولاً، أكثر سموّاً في الشجاعة من جزئها الثالث، عن تسوماكيشي. قصّتا تانيزاكي اللتان يقدّم كيكو ياماتا ترجمتهما إلينا تنتميان إلى هذه الفئة التي تفوق أيّة نعوت. نسبح إذن في ميدان لا يقبله القارىء الغربي دوماً في سهولة، على رغم كل المعارف البسيكولوجية التي يمكن أن نفترضها عنده. فسلوك النساء بالتحديد

خُلق لجعله حائراً، حتى وإن صدّقها. ومع ذلك فإن حقيقة تصرّفاتهن لا تدع مجالاً للشك؛ فهنّ أكثر حقيقيةً، أكثر اكتمالاً كنساء، شخصياتهن مأساوية، أكثر من أي ابتداع لمخيلتنا. إنّهن يذكّرن بالبطلات أيضاً غير المعقولات في التراجيديا اليونانية. مثل تلك الوجوه التي لا تنسى من اليونان القديمة، أولئك الشرقيات «ضحايا الحبّ» يفرضن أنفسهنّ علينا لأن فيهنّ من الحاضر، أو تحديداً من الكلاسيكي والخالد. إنّ البطلة اليابانية الآتية من عمق تاريخي، تقليدي، اصطلاحية في شكل دقيق، تتحرّك بحريّة وجرأة تدهشاننا. لا ندري أبداً ما تخبئه لنا ونحصل دوماً على ما لم نتمكّن عقلانياً من توقّعه (أليس هذا في ذاته دليل على أنثويتهنّ الكاملة؟). لكنّ الفارق الأهمّ بين المرأة اليابانية والنساء الأخريات في الأدب العاطفيّ يكمن في الهالة الجمالية التي تحاوطها. حتى الفعل الأكثر وحشيّة، الأكثر بشاعة، يتبدّى لنا عبر تلك الهالة.

أعرف أن ما أكتبه قد يظهر على قدر من المبالغة. فليكن. لا أعتذر على هذه الضعاف. لقد تعذّبت طوال حياتي كإفراز من الأدب الغربي من غياب تلك الفضائل وتلك العيوب التي أعثر عليها في الفنّ والأدب اليابانيين. ومن باب التفرّع الثنائي أستخدم كلمة «عيب». إذ ينبغي تماماً أن يترافق الظلّ مع الضوء.

المتعة، الفرح باكتشاف عالم مدهش الغرابة، ساحر، مهلوس غالباً، كما يُظهره لنا أسياد الثقافة اليابانية، تبدو لي بروعة النظر إلى جانب القمر الآخر. عالم، ولو أنّه بقي خافياً علينا طويلاً، ليس متعذّراً بقدر ما نعتقد. إنّه قليلاً مثل جانب الحقيقة ذاك في روحنا،

الذي يتراءى في أحلامنا، والذي لا يسعنا أبداً من دونه إدراك الطبيعة الحقيقية لكينونتنا الغامضة.

هنري ميلر
بيغ شور- ٤ آب ١٩٦٠

حكاية شونكين

كانت شونكين، واسمها الحقيقيّ كوتو موزويا، إبنة عطّار من حيّ دوشو في أوزاكا. ماتت في الرابع عشر من تشرين الأول للسنة التاسعة عشرة من عصر «الميجي»[1] وقبرها موجود داخل حرم معبد لطائفة جودو، في حيّ شيتاتيرا من المدينة نفسها.

لبضعة أيام خلت، ولدى مروري أمام هذا المعبد، ألفيت نفسي مأخوذاً برغبة في زيارة ذلك القبر، دخلت الفناء، وقرعت الباب. فتح لي الحارس، وفيما كان يقودني خلف المبنى الرئيس قال لي:

ـ مدافن عائلة موزويا من هنا.

في ظلّ أَكَمة أزهار الكاميليا، أبصرت مقابر أفراد عديدين من العائلة، مشيّدة في أزمنة مختلفة، لكنني لم أقع في أيّ مطرح على قبر كوتو.

ـ أذكر أنه كانت لعائلة موزويا قديماً إبنة تدعى كوتو أو شونكين، خاطبت الحارس. أين قبرها؟

أطرق لحظة وأجابني:

---

(١) ١٨٨٧ ـ المؤلّف.

ـ أتُراه النصب التذكاريّ المرفوع هناك؟

وأشار إلى تلّة صغيرة أفضينا إليها عبر درج حجريّ. المكان مشجَّر بوفرة، الأمر النادر في أوزاكا، وقبر كوتو المنحوت في وسط المرتفع، يحتلّ مساحة ضئيلة.

على وجه من النصب نقرأ إسماً: شونكين ايشو زنجوني، وعلى الوجه الآخر: إسمها المَدَنيّ موزويا كوتو، مسمّاة شونكين، توفيت في ١٤ تشرين الأول من العام التاسع عشر للميجي، في الثامنة والخمسين من العمر.

وأقرأ جانباً العبارة التالية:

شيّده نوكوي سازوكيه، تلميذها.

طوال حياتها، حملت كوتو إسم عائلتها، إنّما كونها عاشت زواجيّاً مع تلميذها المعلّم نوكوي، فقد دُفنت إلى مسافة معينة من المقابر العائلية.

كانت عائلة موزويا قد تشتّتت، بحسب قول الحارس، وما كان أفرادها يزورون مدافن جدودهم إلاّ لماماً. لا أحد كان يزور قبر كوتو تقريباً، ولم يفكر الحارس أبداً في إمكان أن يكون ذلك القبر لفرد من عائلة موزويا.

ـ إنها متروكة إذن؟ سألته.

ـ كلاّ، أجاب، ليس كلّياً. ثمة امرأة عجوز تقطن هاجينوشايا تأتي إلى هنا مرة أو مرتين في السنة. تزور أولاً قبر شونكين ومن ثمّ ـ أترى تلك البلاطة الصغيرة، هناك، أضاف وهو يدلّني على قبر آخر إلى

اليسار ـ تتجه نحوه لوضع البخور والزهور. هي أيضاً من يهب المعبد مالاً من أجل تلاوة السوتراس على روح أولئك الموتى.

اقتربت من النصب الصغير وكان في نصف حجم ذلك الذي لكوتو. في جانب منه قرأت:

شينيو كينداي شينشي

وعلى الجانب الآخر:

نوكوي سازوكيه المعروف كينداي، تلميذ موزويا شونكين، توفي في ١٤ تشرين الأول من السنة أربعين للميجي[1] عن عمر ٨٣ سنة.

هناك، إذن، كان قبر الموسيقيّ الأعمى المعلّم نوكوي. سأعود للتحدث عن عجوز هاجينوشايا. في الوقت الحاضر أكتفي بملاحظة أن آخر أمنية لنوكوي كانت أن يشيّد له نصب أصغر من نصب شونكين، مصرّاً على صفته كتلميذ يكنُّ احتراماً.

من أعلى الهضبة حيث تُحمِّر أشعة مغيب الشمس بلاطات المقابر، كنت أتأمل مدينة أوزاكا المبسوطة عند قدميّ. من حولها تتدرّج الهضاب التي دون شك لم يتبدّل مرآها مذ كانت تحمل المدينة اسمها القديم نانيوازو. قبالة الغرب، تتمدّد السلسلة الجبلية صوب معبد ملك السماء. أوراق الشجر والعشب متّسخة بالدخان الأسود. الشجرات الكبيرة اليابسة والمكسوّة بالغبار تمنح شعوراً بالحزن. لكن عندما شُيِّدت هذه النصب كان المكان بلا ريب زاهي الاخضرار. ولا

(١) ١٩٠٨ ـ المؤلِّف.

يزال هذا المدفن الذي يشرف على أبهى بانوراما، الأكثر هدوءاً بين سائر مدافن المدينة حتى اليوم.

معلمة وتلميذ، وقد كمّلا قدرهما الغريب، ينامان إلى الأبد في ضبابة هذا المكان المنعزل المشرف على أهمّ مدينة صناعية في الشرق بمبانيها اللامحدودة. حصلت تغيّرات كبيرة بحيث لم تعد المدينة تذكّر بأوزاكا حقبة الموسيقيّ الأعمى. لكنّ هذين الضريحين المنعزلين ما برحا إلى اليوم يشهدان في صمت على الحميميّة العميقة التي عاش فيها ذانك الكائنان.

انتمت عائلة الموسيقيّ، في أصلها، إلى الطائفة البوذية نيشيرين وأضرحة جميع ذويه، إلاّ ضريحه، موجودة في معبد قرية هينو، في إقليم كوشو. متخلّياً عن الديانة التي تُلقَّن أباً لإبن عبر أجداده، اعتنق نوكوي مذاهب طائفة جودو هياماً بشونكين. هكذا الموت نفسه لا يفرِّقهما. يقال إن إسمَيْ الوفاة للمعلمة والتلميذ وموضع وقياسات الضريحين، حُدِّدت سلفاً على أيام شونكين. ضريح شونكين كان في رأيي بارتفاع ست أقدام وضريح الموسيقيّ أقلّ من أربع. كانا منتصبين بجانب بعضهما البعض فوق بلاط الغرانيت. صنوبرة مزروعة إلى يمين قبر شونكين، كانت تشكّل فوقه قبّة من الإبَر الخضراء. قبر الموسيقيّ محايد قليلاً، يجاور قبرها بتواضع.

أمام هذين الضريحين، حضرتني صورة نوكوي ذاك الذي خدم معلمته طوال حياته باخلاص الظلّ الملازم للجسد. بدا لي أنَّ الحجرين ذاتهما يبعثان روحاً لا تزال إلى اليوم تهتزّ فرحاً. جثوت وسجدت في إجلال إزاء قبر شونكين، ثم واضعاً يدي على ضريح الموسيقيّ، تلّمست أعلى النصب الكئيب. بعدها همت على وجهي

فوق الهضبة حتى غابت الشمس.

وقعت بين يدي حديثاً، مخطوطة صغيرة بعنوان «سيرة موزويا شونكين» وأعانتني كمدخل إلى معرفة شونكين. الكتاب الذي يقع في ستين صفحة، مطبوع على ورق فاخر، وإصداره متقن. يقال إنّه كان للاحتفاء بالذكرى الثالثة لوفاة شونكين، وقد وضع الموسيقيّ، تلميذها، سيرة حياة معلّمته ووزّع نسخاً منها على أصدقائه. وبرغم أن أسلوب الكتاب لم يكن شخصياً، فمن المؤكد مع ذلك أن نوكوي هو الذي غذّاه بعناصر الحكاية ويمكن اعتباره المؤلّف..

بحسب هذه السيرة فإنّه «منذ أجيال كان زعيم عائلة شونكين يدعى موزويا ياسوزايمون. وأجدادها كانوا يديرون محل عطور في حيّ دوشوفي أوزاكا. وقد ورث والد شونكين ياسوزايمون، السابع في سلالته، ذلك المحل. في حين كانت والدتها، شيجيه، من عائلة أتوبيه، من كيوتو. رزقت شيجيه بصبيّين وأربع بنات: شونكين، الصغرى، ولدت في ٢٤ أيار من السنة الثانية عشرة لعصر «البونزاي»[١]. كانت طفلة فريدة الموهبة. جمالها ورقّتها يعصيان على أي وصف. تعلّمت الرقص في الرابعة. إيقاع الخطوات والوقفات بدت فطرية عندها. حركات يديها جاوزت بليونتها حركات يدي راقصة محترفة. أستاذها المملوء دوماً دهشة كان يهمس «آه هذه الصغيرة! بموهبة وميزات كهذه يمكنها بلوغ شهرة عظيمة. أمِنْ حسن حظها أن تكون سليلة عائلة محترمة».

من حداثتها درست رموزَ الأفكار وفنَّ نسخِها. تقدُّمها السريع في

(١) ١٨٢٩ ـ المؤلّف.

سائر المجالات تخطى تقدم أخويها الأكبرين.

هذه الحكاية كونها مستوحاة على يد الموسيقيّ الذي أجَلَّ شونكين إلى مصاف إلهة، إلى أيّ حدّ يمكن الوثوق بها؟ مع ذلك فإنّ وقائع مختلفة تشهد على مواهب شونكين الطبيعية. نساء تلك الحقبة كنّ إجمالاً قصيرات القامة، وشونكين نفسها كانت أقلّ من خمس أقدام طولاً. ملامحها وتكاوينها الرقيقة كانت فائقة النعومة. في إحدى الصور الفوتوغرافية الملتقطة لها، يقال، في السابعة والثلاثين والمحفوظة حتى أيامنا هذه، أرى وجهاً بيضاوياً باستدارة بذرة شمّامة، وعينين حنونتين. الأنف وكأنّ أصابع نحيلة عجنته: بالكاد يرى. لكنّ تاريخ الصورة يعود إلى سنوات عصر الميجي الأولى أو أواخر العصر السابق. بقع سمراء هنا وهناك تشوهها. اصفرّت الصورة وأمست بضبابيّة تذكار عتيق. عبر هذه الصورة الممحوّة، لا أجد في شخصية شونكين سوى ملامح الوقفة الحلوة، المألوفة لنساء تجار أوزاكا الأغنياء.

ذلك الوجه الجميل لا ينمّ عن شخصية قوية والانطباع الذي يبديه مبهم جداً. أما بالنسبة إلى عمرها، وطالما أنهم يؤكدون أنها كانت آنذاك في السابعة والثلاثين، فإنني مستعدّ للاقتناع. لكنها تستطيع أن تبدو في السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين.

في تلك الحقبة، كانت قد فقدت النظر منذ أكثر من عشرين عاماً، ومع ذلك لا تشبه عمياء بقدر ما تشبه امرأة تغمض عينيها. الروائيّ هاروو ساتو يلاحظ أنّ الصمّ يبدون بلهاء والعميان يقظين. بلاهة الصمّ الظاهرية تلك، يشرح، متأتية من عادتهم في تقطيب الحاجبين فاغري الفم ومائلي الرأس جانباً ليفهموا في شكل أفضل

ما يقال لهم. العميان، من جهتهم، يبدون حذرين. جالسين في هدوء مغمضي الرموش يبدون كالغائبين في تأمل. أتساءل ما إذا كانت تنطبق هذه الملاحظات على سائر الصمّ وجميع العميان. ولكن بسبب عينيّ بوذا، نصف المفّتحتين دوماً، وتلك النظرة الرحيمة، التي اعتدنا عليها، نكتنه رأفةً وعطفاً أكثر في العينين المغمضتين منهما في عينين مفتوحتين. الأوليان توحيان لنا بالاحترام أحياناً. هكذا تبدو لنا رموش شونكين المطبقة، وربما لأنها امرأة جليّة الرقّة، حاوية تلك الطيبة غير المحدودة التي نجلّها في صورة الكوانون القدامى جداً.

يُعتقد أننا نملك الصورة الفوتوغرافية الوحيدة لشونكين. فن التصوير الفوتوغرافي لم يكن عُرف بعد في اليابان حينما كانت صبية. السنة نفسها التي التقطت فيها هذه الصورة عانت شونكين من مصيبة كبيرة. ما كانت لتوافق على الإطلاق بالتوضّع لصورة أخرى.

لا يمكننا إذن أن نستدعي محيّاها إلا عبر هذه الصورة المتقعة.

السيرة الذاتية التي تحدثت عنها تتابع بهذه العبارات:

«كان والداها يعتبرانها إذن جوهرة ثمينة ويحملان لها حباً أعمق من حبهما لشقيقيها ولشقيقاتها الثلاث. إلا أنها أصيبت في التاسعة من عمرها، بمرض في عينيها، وفقدت النظر كلياً. جنّ ذووها ألماً وأمها عبّرت من فرط يأسها، عن حقدها على السماء وكرهها للعالم. بدت فاقدة العقل لبعض الوقت. بعد هذه المأساة تخلت شونكين عن الرقص لتنصرف كلياً إلى دراسة الكوتو والشاميزن. قررّت نهائياً أن تكرّس ما تبقى من حياتها للآلات الوترية».

مرض العيون الذي عانت شونكين منه ليس محدداً في وضوح وكاتب السيرة لا يضيف تفاصيل أخرى. مع ذلك فهو يوضح في حديثه عن شونكين «شجرة باسقة تجذب الريح الغيورة. متمتعة بجمال ومواهب لا تضاهى، كانت معلّمتي على امتداد حياتها ضحية الرغبة مرتين، وهذا ما أدى إلى مسار قدرها التعس».

متأملاً في هذه الكلمات، أميل إلى الاعتقاد بأنها أصبحت عمياء في ظروف غريبة ومجهولة. (كاتب السيرة يلاحظ فقط أنّ معلّمته كانت تشكو من رمد قيحيّ).

أظهرت شونكين، التي ترعرعت مع كل العطف الممكن، طبعاً متكبراً، غير أنه لم يكن يُعْوِزُ حديثها وتصرفاتها الجاذبية. كانت تكشف عن سخاء تجاه الأدنى منها. كانت تحمل، بمزاجها الفرح والمرح، محبة لكل فرد، وتتفاهم جيداً مع شقيقيها واخواتها. عائلتها كلها تدلّلها. مع ذلك فإن التفصيل الذي خصّها به والداها أغضب مربيتها وكانت هذه المرأة تكرهها سرّاً. الرمد القيحيّ، ينجم كما نعرف، عن مرض زُهْريّ ينقل العدوى إلى غشاء العين المخاطيّ، والموسيقيّ يلمح إلى أن الممرضة قد تكون أحدثت ضرارة كوتو بعمل جهنميّ ما. لن يسعني القول ما إذا كان يمسك ببراهين، أو ما إذا كان هذا الشك ثمرة خياله، لكن عنف شخصية شونكين في سنواتها الأخيرة يحملني إلى الظنّ بأنّ هذا الحادث أثّر فيه بالعمق. يائساً من تعاسة شونكين، كان لدى الموسيقيّ نزوع غير واعٍ إلى تجريح ولعن الجنس البشريّ. لا نستطيع الوثوق بكل ما يدّعيه حول ذلك الحادث، واتهاماته ضد المربية تستطيع أن تكون مجرّد افتراضات.

بالنسبة إلينا عبثاً نبحث عن الأسباب. يكفي القول إنها فقدت

النظر في التاسعة من العمر وأنها بعد هذا الحدث تخلّت عن الرقص وأكبّت على تمارين الكوتو والشاميزن. ومرجّح أن العمى أرغمها على دراسة الموسيقى. هي نفسها أكدت مراراً لرفيقها أنها كانت موهوبة لتصميم الرقص في شكل خاص.

عجوز بيت الشاي التي تحدّثت عنها آنفاً تدعى تيرو شيجيزاوا وتحتلّ المرتبة الثانية في مدرسة كوتو إيكوتا. ارتبطت شخصياً بخدمة شونكين في سنواتها الأخيرة، ومكثت بعد وفاتها مع المعلم نوكوي. وعلى حدّ قولها، فإنّ شونكين، معلّمتها، كانت موهوبة للرقص «لكنها تلقّنت فن الكوتو والشاميزن الدقيق على يد معلّم يدعى شونشو منذ سنّ الخامسة أو السادسة». واصلت ممارسة هاتين الآلتين في شكل مثابر. إذن، خطأ الافتراض بأنها لم تدرس الموسيقى إلا إثر فقدانها النظر. في تلك الحقبة كانت فتيات العائلات الميسورة والمحترمة يتلقنّ الفنون الترفيهية منذ نعومة أظفارهن. وكانت شونكين تحفظ عن ظهر قلب لحناً صعباً للغاية مكتوباً لآلة الكوتو، عنوانه «القمر الذي يتناقص». لم يكن عمرها آنذاك يزيد على العاشرة لكنها لعبته على الشاميزن، مع أنها لم تسمعه إلّا مرة واحدة. الأمر الذي يثبت المَلَكة الموسيقية لديها. أفترضُ أنها بعد ضرارتها، وقد حُرمت من المتعات الأخرى، أمست تتذوّق الموسيقى أكثر فأكثر فتكرست لها جسداً وروحاً.

هذا الرأي هو بلا ريب الأقرب إلى الواقع. لا أشك في موهبتها الموسيقية الفطرية. بينما لمعرفة ما إذا كانت موهوبة للرقص، فإنني أظلّ مشككاً حول هذا الموضوع.

مع أنها تكرّست للموسيقى في شغف، فإنّ وضعها الاجتماعي وفّر

عليها كلَّ همٍّ ماديّ. ففتتحت لاحقاً درساً خاصاً علّمت فيه الكوتو. قد لا تكون جاءتها فكرة مهنة مستقبلية سلفاً، إلّا أنّ هذه البادرة كانت ذات منابع خاصة، وحتى التعليم لم يكن حينها موردها الوحيد. كل شهر كان منزل ذويها يغدق عليها مبلغاً أعلى بكثير، ولم يكن مع ذلك يكفي المصاريف التي يرتّبها ذوق حياتها المترفة والبرّاقة.

في البداية، أتقنت موهبتها دون أدنى همّ، فقط من أجل المتعة التي جنتها منها. تلك المثابرة طوّرت موهبتها. فالمقطع التالي من السيرة ينطق صدقاً إذن: «لدى بلوغها حوالى الخامسة عشرة، تفوّقت شونكين وأنجزت تقدماً كبيراً في الموسيقى، على زملائها الذين لم يستطع أحدهم أن يضاهيها».

تقول الموسيقيّة العجوز شيجيزاوا: «كانت معلمتي تلاحظ بزهوٍ أن المعلّم شونشو لم يؤنّبها أبداً في قساوة، بخلاف قسوته المألوفة. كان، على العكس من ذلك، يثني غالباً على مهارتها. مرشداً إيّاها بنفسه، عاملها هذا المعلم بطيبة ونعومة ولم تكنْ شونكين قادرة أن تفهم سبب خوف التلامذة الآخرين منه. اكتسبت بفضل مَلَكاتها الطبيعية مهارة حقيقية دون أن تعرف عذابات الإعداد المهنيّ».

شخصياً، أعتقد أن أي معلّم، مهما تبلغ قساوته، ما كان ليجرؤ على معاملة إبنة عائلة موزويا بالقسوة ذاتها التي يعامل بها أبناء وبنات الفنّانين. وقد اعتمد ذلك المعلّم أساليب المراعاة دون شك. لعلّه رغب، علاوة على ذلك، في محاباة تلك الفتاة المسكينة المولودة في عائلة ميسورة والتي ابتلت مع ذلك بمصيبة فقدان النظر. ثم إن مواهب شونكين غير العادية بنوع أخص، قوّت إعجابه ومحبّته. كان يُظهر لها اهتماماً أكبر من اهتمامه بابنه. في كل مرة كانت تفوِّت درساً،

كان يبعث إليها برسول يستعلم عنها، أو يذهب بنفسه لرؤيتها. كان يبدي افتخاراً فائقاً بأنها من تلامذته ولم يكن يخفي ذلك. كان يقول دوماً للعديد من أبناء الفنانين الذي يتابعون دروسه: «ينبغي عليكم اتخاذ آنسة عائلة موزويا الصغرى مثالاً لكم. سيكون عليكم أن تكسبوا عيشكم قريباً. تَرْكُها تتفوق عليكم، هي التي تعمل دون أن تكون مرغمة على ذلك، لهو أمر يجب أن يُخجلكم».

ذات يوم، ارتفعت الشكاوى من موضوع تفضيلها المتواصل. وردّ عليها: «لِمَ تتذمرون؟ المعلّم الصالح يلقّن بصرامة. بقدر ما أمتنع عن تأنيبها، بقدر ما أُظهر لها اهتماماً. هذه الفتاة تملك معرفة موسيقية فطرية وذكاءً حيّاً. حتى وإن تُركت لجهودها الخاصة فستتقدم إلى درجة معينة. لو علّمتها الموسيقى حقاً، لغدت ماهرة في شكل خطير، بحيث أنكم ستجدون أنفسكم، أنتم المحترفون، في وضع مزعج. بالنسبة إليها، هي ابنة العائلة الثرية التي تعيش في بحبوحة، فإن التعليم القاسي غير ضروري. أليس عليّ أن أبذل جهدي معكم، أيها المولودون أغبياء، لأعدّكم فنانين حقيقيين؟ في رؤوسكم الكثير من الأفكار المجنونة...».

منزل المعلّم شونشو يقع في أوتسوبو، على مسافة نصف كيلومتر من محلّ موزويا. وكانت شونكين تتردّد يومياً إلى مدرسة هذا المعلّم الخاصة. وكان يقودها بيدها تلميذ مبتدىء. ذلك الصبي، الذي يدعى سازوكيه، أصبح لاحقاً المعلّم الموسيقيّ نوكوي، وذلك أصل علاقاتها.

ولد سازوكيه كما ذكرت، في هينو من إقليم كوشو، حيث كان أهله أيضاً يديرون محلّ عطور. والده وجدّه كانا بدورهما قد تعلّما لدى

الموزويا في أوزاكا. بقي إذن ذلك المنزل بالنسبة إلى سازوكيه منزل معلّمي أجيال عائلته المتعاقبة.

كان يزيد شونكين بأربعة أعوام وغدا تلميذاً مبتدئاً في الثالثة عشرة. كانت في التاسعة آنذاك، وكانت قد فقدت نظرها في السنة عينها. لدى قدوم سازوكيه إلى المحلّ، كانت حدقتا الفتاة الصغيرة الفاتنتان قد أطبقتا إلى الأبد، لكن سازوكيه لم يشعر حتى مماته بأسف على عدم معرفته أيّ نور في عينيّ شونكين. كان، على العكس، مغتبطاً من ذلك: لو تأملها قبل ضرارتها، لبدت له شونكين العمياء غير كاملة... هكذا لا يستطيع اكتشاف العيب الطفيف في ملامحها التي بدت له، منذ البداية، متناسقة.

في نهاية حقبة التوكوغاوا، كان لدى فتيات التجار الناجحين، المتربيّات داخل منازلهن دون أن يستطعن التعرّض للشمس إطلاقاً، ما يفاجئن به صبياً ريفياً مثل سازوكيه بشحوبهنّ ورقّتهن وشفافية بشرتهن. شقيقة شونكين الكبرى كانت في الثانية عشرة والصغرى في السادسة. الثلاث كنّ للتلميذ المبتدى القادم من قريته على قدر من الجمال لا يعرفونه في الريف. لكن ما أسر التلميذ في شكل خاص، الروحانية الغريبة لدى شونكين العمياء.

من عينيها المغمضتي الرموش ينبعث سحرٌ ونعمةٌ أكثر من عيون شقيقاتها المتفتّحة. لعلّهما الرأفة واللطافة اللتان تجعلان شونكين تبدو الأجمل من الثلاث. لكن الأمر لم يكن كذلك، بالنسبة إلى سازوكيه. في أي حال، كان أي تلميح إلى حب نابع من الشفقة يهينه وينفي في غضب كل تأكيد من هذا النوع، قائلاً: «لم أبدِ على الإطلاق تحسّراً أو ألماً وأنا أنظر إلى وجه معلّمتي. بالمقارنة معها، لنا نحن أن نتذمّر. ما

كانت حاجة فتاة بشخصيتها وجمالها إلى شفقتك؟ بل كان يحدث أن تتعطّف عليّ، أنا سازوكيه المسكين، وترثي لحالي. بِمَ نتبجّح أنتَ وأنا؟ أبامتلاكنا عينين وأنفاً مثل سائر البشر».

إنما لم يكن عليه أن يصوغ هذه المشاعر إلاّ لاحقاً. لم يكن في البدء سوى خادم شونكين المخلص، مع تعبّد سرّي في أعماق فؤاده. لم يَعِ بلا ريب ذلك الحب، وإن كان أحبها حينذاك، فإنها مكثت بالنسبة إليه فتاة بريئة، إبنة المنزل الذي خدم فيه جدُّه. لكنه كان يغتبط في صمت من المهمة التي تتيح له مرافقتها كل يوم. كان أمراً مثيراً للدهشة أن يُختار وافد جديد ليوصل بيده فتاة أسياده الغالية. في الواقع لم تتحتّم هذه المهمة فوراً على سازوكيه وحده، بل اضطلعت بها الخادمة كذلك، وصبيٌّ خادم أو تلميذٌ آخر. لكنّ شونكين أبدت رغبتها يوماً بالقول: «أتمنّى أن يكون سازوكيه». وهكذا أصبح في الرابعة عشرة دليلها الخاص.

مملوءاً فخراً، يد شونكين الناعمة في يده، يقودها لدى معلّمها، على مسافة خمسمائة متر من المنزل، وينتظر نهاية الدرس كي يعود بها. لم تكن تنبس ببنت شفة على الطريق، وكان هو يحتفظ بصمته في انتظار أن تكون هي البادئة في الحديث. حينها يدأب على إجابتها بلا حماقة. عندما سأل أحدهم شونكين: «لماذا اخترت سازوكيه؟» أجابت: «إنه أكثر هدوءاً من الآخرين ولا يتفوّه أبداً بتفاهة». تحدّثت عن طبيعتها الآسرة والاجتماعية، لكنّ فقد نظرها جعلها كئيبة وصعبة الإرضاء. كانت تتكلم ببطء وما عادت تثرثر كالسابق وهي تضحك بجَذَلْ. •

يقال من جهة أخرى إنّ سازوكيه لم يكن يحبّ رؤيتها تضحك.

أعمى يضحك يبدو مغفلاً ويدعو للرثاء، الأمر الذي ما أمكن لسازوكيه أن يحتمله عندما يتعلّق الأمر بشونكين.

هل اختارته لأنه لم يكن يثرثر ولا يسعى إلى فرض نفسه، أم أن وَرَع سازوكيه كان يلقى الصدى الغامض في قلب الطفلة؟ لم تكن تجاوزت العاشرة. ذكية وناضجة، وكانت الحاسة السادسة المتطورة لديها قادرة على تحذيرها. أما وقد وعت، لاحقاً، حبّها الشخصيّ تماماً، فإن إباءها لم يعلن هذا الشعور ومضى وقت طويل قبل أن تهب نفسها لهذا الحب الذي يمكن الارتياب في بشائره، لكن سازوكيه شكّ منذ البداية في وجوده بعينيّ شونكين.

كان سازوكيه، لكي يقود شونكين، يرفع يده اليسرى بمستوى كتفها لتلقي يدها اليمنى فيها. لم تكن سوى راحة اليد. ومن أجل أن تسأله أمراً، كانت تعبّر بالحركات أو تقطّب حاجبيها. كانت بالأحرى تخاطب نفسها أكثر مما توجّه الحديث إليه. وإذا لم يلاحظ أو لم يفهم أوامرها الغامضة تغدو شيطانيّة المزاج. كان سازوكيه في حال تأهّب دائمة، تتملّكه الخشية باستمرار من أن تفوته حركة أو تعبير خاطف. كان يشعر أن عنايته دائماً على المحك وفي تحدٍّ. إلى نزواتها التي شجّعتها تربيتها، يضاف إلى شونكين المكر الخاص بالعميان. ولم يكن سازوكيه يعرف طعم الراحة.

ذات يوم، وفيما كانا ينتظران دورها عند المعلّم شونشو، اكتشف فجأة أنها اختفت. وراح يبحث عنها في كلّ الجهات مغموماً ليجد أنها توجّهت إلى الحمّامات خلسة. كانت، في العادة، عندما تشعر بضرورة قضاء حاجتها، تغادر القاعة في صمت. وكان هو، مُشعراً برغبتها، يتبعها ويتقدّمها ممسكاً بيدها حتى بيت الخلاء، وينتظر خروجها كي

يسكب الماء على يديها. لكنه غفل عنها لحظةً يومذاك. وهرع راكضاً ليجدها خارجة تبحث عن مغرفة الماء.

ـ هلا عذرتِني، قال في صوت راجف.

ـ هذا يكفي. إذهب! أردفت وهي تهزّ رأسها.

في تلك الحالات، كان يكتفي بالطاعة، ثم يعاني لاحقاً من أكبر صعوبة في استعادة حظوته لديها. حادث آخر يُبرر طبعها. فيما كانا بعد ظهيرة يومٍ صيفيّ ينتظران دورها، وكان سازوكيه واقفاً بخضوع خلفها، تمتمت: «الطقس حارّ جداً».

ـ أجل، جدُّ حارّ، أجاب موافقاً. كرّرت بعد صمت: «الطقس حارّ جداً». فَهِم حينها ما تتمناه، وتناول مروحة يهوّي لها. بدت راضية، لكن في كل مرة يضائل التهوئة، تكرّر «الطقس حار جداً».

ما كانت تُظهر إلاّ لسازوكيه عناداً كهذا ونزوة مماثلة، ولم تكن لديها مثل تلك المتطلبات إزاء التلامذة الآخرين أو الخادمات. لم تكن تستسلم إلى سجيّتها إلاّ في حضوره لأنّه يقدّر ويطري غرائزها. أما بالنسبة إلى سازوكيه فقد كانت عبودية عاشقة أكثر منها طاعة لنزواتها، وهو يقبلها إرادياً، آخذاً إيّاها كنوع من الدلال ومعتبراً أنها كالحظوة المخصصة له وحده.

* * *

كان المعلم شونشو يعطي دروسه مداورةً، في غرفة خلفيّة. عندما يأتي دور شونكين، يساعدها سازوكيه في صعود الدرج واحتلال مكان قُبالةَ الموسيقيّ. ويضع إحدى آلتي الكوتو والشاميزن أمامها ثم يُقفل عائداً إلى قاعة الانتظار. لم يكن يعرف مطلقاً موعد انتهاء الدرس.

راصداً السمع، كان يصغي إلى الأصوات الطالعة من الطابق. هكذا أصبحت الألحان التي تتعلّمها شونكين مألوفة لديه وعلى هذا النحو تطوّر ذوقه الموسيقيّ.

الانتظام الطبيعي كان بلا ريب موجوداً، ولكن واجبه في إحاطة شونكين بعنايته والحماسة التي توحيها له، حملاه على مقاسمتها الحياة في كل شيء، وبفضل هذه الظروف لم يعش عطّاراً طوال حياته.

توصّل في أواخر سنته الرابعة عشرة، بعد أن وفّر مصروف الجيب الذي كان معلّمه يعطيه إيّاه والإكراميات التي يتلقّاها من الزبائن، إلى شراء آلة الشاميزن سرّاً. ولكي يبقى في منأى من فضول الخدم الآخرين، خبّأه في السقيفة، وراح يتمرّن عليه كل ليلة، باذلاً جهداً في عدم إقلاق راحة سكان المنزل.

كان مفترضاً بسازوكيه، الذي وُضع لدى عائلة موزويا للتدرّب، أن يتهيأ لخلافة والده. وربما لم يكن مؤمناً بأنه موهوب للموسيقى، لم يسعَ إليها كمهنة مستقبلية. غير أن وفاءه المطلق لشونكين حثّه على الاهتمام بكل ما تزاوله، ولم تكن يقظة تذوقه للموسيقى ولا رغبته في تلقّن الشاميزن بأمل اجتذاب حبّ سيدته. بل اجتهد، على العكس من ذلك، في اخفاء شغفه المستجدّ.

خمسة أو ستّة فتيان متدرّبين كانوا ينامون برفقته، تحت سقف خفيض جداً بحيث كان عملهم تحاشي الوقوف. حصل منهم على تعهد بعدم إثارة موضوع حبّه للموسيقى طالما أنّه لا يؤرق نومهم. لكن في عمر كهذا، لا ننام كفاية، ما إن يضعوا رؤوسهم فوق الوسادة حتى يغفون ولم يكن أحد منهم يتذمّر. وكان سازوكيه ينتظر بدء شخيرهم لينهض من فراشه ثانيةً ويُقفل على نفسه في خزانة

للتمرّن على آلته.

في عشايا الصيف، كانت تصير الحرارة خانقة داخل الخزانة. غير قادرٍ على استخدام ريشة العزف، كان ينقر الأوتار بأصابعه، في العتمة الكاملة.

ذلك النقص في النور لم يكن يزعجه. العميان يعيشون فيه على الدوام وآنسته كانت تلعب الشاميزن في العتمة نفسها. هكذا كان يشاطرها مملكتها المظلمة، وهي متعة له. وحينما كان في إمكانه أن يلعب بوضح النهار، كان يغمض عينيه فور تناوله الشاميزن، كي يتابع تقليد معلّمته. محتقراً نظره، كان يُؤثِر إخضاع نفسه لظروف العمياء شونكين ذاتها، وكان ذاك الإزعاج تلذّذاً له.

كل شيء جرى كما لو كان يتمنّى الضرارة لنفسه، ويمكننا التفكير أنه حينما أقدم، لاحقاً، على حرم نفسه النظر إرادياً، لم ينفِّذ سوى التصميم الذي يضمره منذ مراهقته.

* * *

صعبٌ بلوغ المهارة الكاملة للسيطرة على آلات مثل الكمان أو الشاميزن، ينبغي دوزنتها في كل مرة يلعب العازف عليها. وصعوبات الشاميزن، أيام لم تكن النوطة الموسيقية قد وجدت بعد، تتحدّى المخيّلة.

يمكننا التوصل في ثلاثة أشهر، مع معلّمٍ ماهر، إلى العزف على آلة الكوتو. ويلزم ستّة من أجل الشاميزن. وبما أن سازوكيه لم يكن قادراً على اقتناء آلة باهظة مثل الكوتو، وفوق ذلك كبيرة الحجم، فقد بدأ بالشاميزن.

إذا كان استطاع دوزنتها منذ البداية (الأمر الذي يشهد بدقة السمع لديه، والتي كوّنها في خلال انتظاره عند استاذ شونكين وتسمّعه في انتباه إلى تلامذة آخرين). ما كان يملك أيّ معرفة في التغيّرات الصوتية، أو في النغمات، أو في مقامات الألحان المختلفة على تلك الآلة.

منذ صيف ذكرى ميلاده الخامسة عشرة وطوال ستة أشهر، نجح في التمرّن على هذا النحو بغفلة من الجميع. وحدهم الصبيان الذين يشاطرونه السقيفة كانوا عارفين بالأمر. لكن كل شيء تبدّل في بحر الشتاء.

في حوالى الرابعة من ذات صباح، وكانت لا تزال العتمة شبيهة بعتمة منتصف الليل في فصول أخرى، سمعت شيجيه، والدة شونكين، صوت الشاميزن.

كان الموسيقيّ يلعب بلا ريشة. كان ينقر الأوتار بالإصبع في نعومة، معيداً المقطع نفسه دون توقف. تساءلت شيجيه للحظة عمّن عساه يكون، لكنها عادت للنوم دون أن تفكر في الأمر ثانيةً. ومع ذلك سمعته مجدداً مرتين أو ثلاثاً لدى استيقاظها ليلاً. ثم اكتشفت ذات يوم، من خلال محادثة، أنّ شخصاً آخر من العائلة سمعه أيضاً وتساءل مثلها، عن مصدر تلك النغمات. لكانت الأمور توقّفت عند هذا الحد لو استمرّ سازوكيه يتمرن، بعد انقضاء الصيف،في الخزانة. غير أنّه طامعاً بنجوه من القصاص على تمريناته الليليّة وسكوت محيطه، تجرّأ ودرج أوائل الخريف، على التسرّب إلى الشرفة الخشبية حيث يجفّف الغسيل، فوق السقف، لدراسة موسيقاه.

كان يخلد إلى النوم في العاشرة مع الفتيان الآخرين. وفي الثالثة

فجراً، كان يخرج إلى السطيحة متأبطاً الشاميزن، ويلعب هناك في البرد القارس إلى حين يُشعره ضوء السماء في الشرق بأنّ وقت العودة إلى الفراش قد حان.

بعد أن سمعته والدة شونكين ثانيةً، جرى تحقيق. استُجوِب الموظفون، وانكشف أمر سازوكيه أخيراً. استدعاه رئيس الخدم وأمره في قساوة بعدم تكرار فعلته. وانتزعوا منه آلة الشاميزن.

مع ذلك أتاه العون غير المنتظر من عائلة موزويا نفسها: كانوا يبتغون الحكم على مهارته وأخذت شونكين المبادرة بنفسها بجعله يعزف أمام ذويها.

ظنّ سازوكيه أن شونكين التي أطلعوها على مغامراته، اغتاظت منه ومن كونه لم يكتف بوظيفته كدليل ومتدرِّج. خنقته الكآبة وهو يتخيّل ما تقوله، ويتساءل ما إذا كانت تتذمر منه أو تهزأ به. لم يكن يتوقّع شيئاً حسناً من ذلك الاختبار، وفزع من الوقوف أمام الموزويا «إذا كانت السماء ألهمت الآنسة بالرغبة في الاستماع إليّ، فكّر الصبيّ المسكين، فسأكون سعيداً ـ لكنني أخشى مزحة من جانبها. ستتمتع برؤيتي موضوعاً لهزء كل فرد. . .» وكان مدركاً، مع ذلك، أنه بمجرد أن تبدى شونكين رغبتها فإنها لن تعفيه منها، ومن غير المجدي له أن يقاوم رغبتها. والأسوأ أيضاً أنَّ الفضول بات يـدفع أمّها وشقيقاتها الآن. لذا استُدعِيَ إلى الأجنحة الخاصة ليقدم عيّنةً من مواهبه. وكان يوم أبّهة لسازوكيه.

كان تعلّم خمسة أو ستة ألحان يعزفها جيداً. استجمع كل شجاعته ولعب كما لو أن حياته متوقفة على ذلك. عزف دون استراحة ما حفظه

من معزوفه «الضفيرة السوداء» السهلة و«أغنيات قاطفات الشاي» الصعبة.

لم يكن سازوكيه مخطئاً. فكرت عائلة موزويا في البداية بمزحة. لكنها رأت لدى سماعه أنه توصّل دون معلّم وفي وقت قليل إلى نتائج غير متوقّعة، وأنّ صوته مستوي النغمات. وسادهم الإعجاب جميعاً.

سيرة حياة شونكين تتابع حكايتها على الشكل التالي:

«قالت شونكين لسازوكيه مشفقة على طموحاته.

ـ من الآن فصاعداً سأعلّمك الموسيقى بنفسي مكافأة لجهودك. ثق بي. أدرس ما استطعت في أوقات فراغك. وافق ياسوزايمون، والد الصبية، على هذا الاتفاق. أبواب السماء فُتحت، بالنسبة إلى سازوكيه. كان في استطاعته أن يترك عمله كمتدرّج، يومياً في ساعات الدرس، وهكذا نشأت الروابط بين إبنة الحادية عشرة وصبيّ الخامسة عشرة، وجمعت التلميذ إلى معلمته، علاوة على علاقة سيدة بخادمها

لماذا أبدت المتعجرفة شونكين فجأة اهتماماً بهذه القوة لسازوكيه؟ يؤكّد البعض أنها لم تبادر إلى تلك الدروس بل إن موقف ذويها دفعها إلى أخذ المبادرة. بخلاف حياتها المدلّلة، عرفت العمياء الصغيرة لحظات وحدة وحزن، ولا يعود يعرف لا أهلها ولا الخادمات السبيل إلى الترفيه عنها، إذ ذاك تنبّهوا إلى أنّ سازوكيه يشاطرها أذواقها.

أمّا الخادمات اللواتي عانين كثيراً من نزوات شونكين، فقد انتهزن الفرصة ليضمنّ منافسة سازوكيه. استغلّين ميول شونكين بالقول لها «ألا تعتقدين أن سازوكيه جدير بالاهتمام؟ بما أنك طيّبة في تلقينه

الموسيقى، فالأحرى به أن يشعر بالسعادة ويقرّ بفضلك».

كانت شونكين تدنو من سن الرشد، والطبيعة تؤكّد حقوقها. قد تكون أبدت، واعيةً عالم الحب، مشاعر حنان إزاء سازوكيه. في أي حال، كان والداها وشقيقاتها والخادمات مرتاحين ومرحِّبين عندما أعلنت رغبتها في اتخاذه تلميذاً لها.

لم يتساءل أحد عمّا إذا كانت مؤهّلة للتعليم، بالرغم من اعتبارها معجزة. كانت عائلتها مستعدة للقبول بأية وسيلة ترفّه عنها. كانوا يتمتعون إذن برؤيتها «تلعب دور المعلمة» وتلقّى سازوكيه أمراً باعتبار نفسه تلميذاً لها.

تقول السيرة الذاتية إنه تابع دروساً يومية معها. مكرّساً ساعات عدّة لها كدليل، يمكننا أن نتساءل، وقد أَصبحَ تلميذَها، عمّا سيحلّ بتدرّبه - لأنّ ياسوزايمون أتى به في النهاية من أجل إعداده للتجارة. أما وقد أوكل إليه بعد ذلك الترفيه عن ابنته، ألم يكن يبدي تأسّفاً حينما يفكّر في ذوي الفتى الذين يحيون في الريف؟ لكنّ مستقبل التلميذ المتدرِّج لم يكن ذا قيمة. كان ينبغي قبل كل شيء تسلية شونكين، والمحافظة على مزاجها الهادىء، وياسوزايمون كان يعي جيداً أنّ سازوكيه لا يطلب أفضل من خدمة ابنته، رفيقاً.

وترك الأمور على سجيّتها وقَبِلَها ضِمناً.

مذ ذاك راح سازوكيه يخاطب شونكين بلقب المعلّمة احتراماً. هي نفسها ألحّت عليه أن يفعل ذلك في أثناء الدروس، سامحة له بأن يناديها «آنسة» في أوقات أخرى. من جهتها، لم تعد تخاطبه بلقب سيد سازوكيه، بل سازوكيه فقط، متخلية عن اللقب الشرقيّ. وعاملته

معاملة المعلّم شونشو لتلامذته فارضةً عليه الاحترام والأدب الواجبين تجاه أستاذ.

انقضت شهور دون أن تتعب من هذه اللعبة، وبعد سنتين أو ثلاث، بدأت المعلمة وتلميذها يأخذانها أكثر على محمل الجد، وما عادا يريان فيها مجرّد تمضية وقت.

مارست شونكين وظيفتها يومياً. كانت تذهب في حوالى الثانية من بعد الظهر عند أستاذها، حيث يستمر درسه نصف ساعة أو ساعة كاملة. وفور عودتها إلى المنزل تستذكر ما تعلّمته حتى المساء. ثم تستدعي سازوكيه بعد العشاء، إذا ما أتتها الرغبة، لتعطيه درساً.

وراحت، لاحقاً، تستدعيه كل ليلة، وتحتجز حريته حتى التاسعة أو العاشرة ليلاً. كان صوتها الغاضب يباغت الخدم في الطبقة الأرضية: «أهذا ما لقّنتك إيّاه يا سازوكيه... لا، لا، سيّىء!... أعد من جديد، حتى ولو صرفت الليل كلّه على ذلك». وقد اعتادت حتى على ضربه بريشة العزف وتوجيه الإهانة إليه حينما لا يرضيها. في النهاية، كان التلميذ ينهار منتحباً.

قديماً، كان الأساتذة يظهرون، من أجل إعداد الفنّانين الشبّان، وحشيّةً تفوق الخيال، تذهب إلى حدّ العقوبات الجسديّة.

معلّم شونكين كان شهيراً بأساليبه الصارمة. لم يكن ليتردّد في إهانة وضرب تلاميذه، ومعظمهم كان ضريراً. ولما افتتحت شونكين، لاحقاً، مدرسةَ كوتو خاصّةً، سرعان ما ذاع صيت قساوة تعليمها هي أيضاً. لا نعجبنّ للأمر، إذ كانت تحذو مثال معلمها، وقد أبدت ذلك مذ تولّت تعليم سازوكيه.

مع ذلك وإن كان يلجأ المعلّمون في العادة إلى القصاصات الجسدية، فليس ثمة أمثلة لنساء قلّدنهم، وكان ثمة ناحية من الوحشية والتمتّع المُضمَر في تصرّف شونكين.

* * *

كان سازوكيه دائم البكاء، إثر ضرب شونكين له، ربما لكونه حساساً وسخيّ الدمع، بيد أنّه كان ينتحب في صوت نائح يقلق العائلة ويُغضب المحيط.

حتى الخادمات اللواتي لم يكنّ مباليات قبلاً بدروس الموسيقى الليليّة، كانت تأخذهن الشفقة على سازوكيه ويجدنه أمراً سيئاً أن تنجرف شونكين في مثل تلك التصرفات، ويعترضن بين بعضهن البعض بالقول: «لكن ماذا تفعلين، يا آنسة؟ هل تنسين مرتبتك الاجتماعية لتعامليه بهذا السوء؟».

حينما كنّ يتدخّلن على هذا النحو، كانت شونكين تعاند في عليائيّة: «هذا لا يعنيكنّ، تقول، أتركننا في سلام. لست ألهو، أعلّم سازوكيه الموسيقى. التعليم يتطلّب أمراً آخر غير أساليب إبنة عائلة وجيهة. إذا كنت أعنّفه وأقسو عليه، فمن أجل مصلحته. ألا تفهمن ذلك؟».

وينسب إليها كاتب السيرة هذه الأقوال أيضاً:

«يا لها من وقاحة الحكم على تصرفي لكوني فتاة ويا لها من جسارة في احتقار الفنّ هكذا! على الرغم من شبابي، فإنني أدرِّس مع سائر حقوق المعلِّم. لم تكن دروس سازوكيه أبداً لعبةَ ولد. إنه يحبّ الموسيقى غريزياً، بيد أن المتدرِّج الفقير لا يمكنه أن يأمل بدراستها مع

أستاذ ذي مقام رفيع. جهوده الشخصية أثّرت فيّ. وبرغم قصوره، التزمت إعداده ومساعدته في طموحاته. إنّكن لا تفهمن شيئاً من ذلك. هيا اذهبن...».

حينها كان سازوكيه يسمعها تتكلم على هذا النحو، كان يدرك عرفان الجميل المدين لها به. لهذا لم يكن يتوقف عن ذرف الدموع، ولكنها إن لم تكن بسبب قسوة شونكين، فإنما كانت امتناناً أيضاً. تلك الفتاة التي كان خاضعاً لها كخادم وكتلميذ، دفعته على درب التقدم. صاغراً لمعاملتها السيئة كان يثابر إلى أن تقول له «هذه المرّة، جيّد».

كان مزاج شونكين يتبدّل من يوم إلى آخر. حينها كانت تؤنّبه بنزق الشباب، يكون يوماً حسناً. لكنّه كان يبكي في مرارة عندما تقاطعه، بعد صمت عابس، لتنقر فجأة الوتر الثالث من آلتها الشاميزن، وتكون سمعت نشازاً واحداً، أو حين تستمع إليه دون التفوّه بكلمة.

ذات مساء، وبينها كانت تجعله يعيد مقطعاً من «أغنية قاطفات الشاي» بدا سازوكيه أبطأ فَهماً من العادة، يكرّر مع الأخطاء ذاتها، ففقدت شونكين صبرها، وتناولت آلتها الشاميزن ضاربة الإيقاع بيدها اليمنى، مقطِّعةً الجملة الموسيقية، لتتوقف في النهاية وتلوذ بالصمت.

لم يكن سازوكيه قادراً على انتظار نجدة أحد، ولا التوقّف فجأة عن العزف. تابع بأفضل ما يستطيع، مُرتجلاً تقريباً.

اضطرب، واحتقن وجهه بالدم وتضاعفت الأخطاء بين أصابعه. سرعان ما كساه العرق البارد، وراح يلعب على الصدفة، لتوتُّر أعصابه. مكثت شونكين صامتة تعضّ شفتيها مقطّبة الحاجبين. وبعد

انقضاء ساعتين صعدت أمها شيجيه لتجدها في الكيمونو الليليّ، فأوقفت الدرس واصطحبت سازوكيه معها.

في اليوم التالي، تحدّث والدا شونكين إلى ابنتهما.

«إعطاء سازوكيه دروساً إحسانٌ من جانبك بالتأكيد، قالا لها، لكنَّ شتم وضرب التلميذ حقٌّ محفوظ لكبار الأساتذة المعروفين عالمياً والمبرّرة تصرفاتهم بفاعلية منهجهم. بالرغم من مهارتك، فإنّك نفسك لم تنتهي بعد من التعلّم. طريقة تصرّفك تقودك إلى الكبرياء والكبرياء في هذا الميدان تمنع أي تقدّم. عدا ذلك، فإن سماع فتاة تصرخ «أبله!» في وجه فتى لهو أمرٌ يخدش الآذان. يجب أن تحرصي على ذلك وأن تتوقفا عن العزف في وقت متأخر ليلاً. تباكيات سازوكيه تُزعجنا وتحرم الجميع النوم».

كان والداها، اللذان نادراً ما أنّباها من قبل، يوبّخانها في نعومة، بيد أن كلماتهما انزلقت عليها كانزلاق الماء على حصاة. لم تفه بكلمة دفاعاً عن نفسها وأطاعت كما لو كانت تمتثل في وداعة. لم يكن سوى مظهر: ذلك التأنيب لم يزعزها حتى.

«إنك لا تملك أي إرادة يا سازوكيه، قالت له، أنت رجل ولا تحتملِ مع ذلك أدنى نقفة دون أن تبكي. لقد سمعك والداي تنوح. جلبتَ عليَّ تأنيباتهما. إذا كنت تودّ أن تدرس فعلاً، فصرّ أسنانك، حتى ولو بلغك الألم في ظهرك. وإلاّ، فإني أرفض البقاء معلّمتك».

وقد أغضبته مآخذها، لم يَعُدْ سازوكيه يبكي على الإطلاق، مهما كانت تبلغ درجة قساوة معاملتها.

* * *

مَيْل الفتاة إلى الشرّ منذ ضرارتها، أقلق ذوي شونكين. بلبلتهما وحشية تصرّفها إزاء سازوكيه. وإن كانا شاكرين للفتى، في معنى ما، ترفيهه عن الابنة الصغيرة، فقد أخذا عليه طاعة العبد، خاشين على ابنتهما شونكين من الانحراف في النهاية.

ردّات الفعل تلك أوحت لهما بترتيبات أخرى. في شتاء سنته الثامنة عشرة أصبح سازوكيه تلميذ الموسيقيّ شونشو. وبعد إعفائه كمتدرّج، لم يعد سازوكيه فقط دليل شونكين الرسمي، بل أصبح زميل دراستها أيضاً. وأخذ ياسوزايمون على عاتقه مهمة إقناع ذويه بالموافقة على هذا التدبير. كان ياسوزايمون وزوجته يفكران في الواقع بأن سازوكيه قادر أن يكون أفضل الأزواج لابنتهما. على أثر ضرارتها وجداه أمراً عسيراً أن يعثرا لها على زوج من مستواها الاجتماعي ذاته. وعرضا للمسألة بعد بلوغ شونكين السادسة عشرة وسازوكيه العشرين. ووسط دهشتهما، رفضت إبنتهما الأمر بوضوح وقالت لهما غاضبة:

- «لن أتزوج أبداً، وفي أي حال، لن أفكر في الاقتران بسازوكيه».

لكن بعد سنة، لاحظت أمها بذهول تحولاً أكيداً في مظهر شونكين الخارجي. وفكرت أنه طالما أصبح الأمر مرئياً جداً بشكل يكفي لاجتذاب انتباه الخدم، فإنهم سوف يثرثرون. وكان على شيجيه أن تتصرف على الفور، لتلافي الفضيحة. واستدعت ابنتها دون استشارة زوجها وسألتها في السرّ. نفت شونكين كل شيء. وعلى الرغم من شكوكها، انتظرت أمُّها شهراً آخر. بعد ذلك، لم تعد حال شونكين تقبل أي شك، واضطرت إلى الاعتراف أمام ذويها بأنها حامل، لكنهما

عبثاً سألاها، فلم تبح باسم الأب. وتحت ضغط الأسئلة أجابت فقط «لقد أقسمنا على الصمت».

ـ هل هو سازوكيه؟ سألاها.
ـ كلا! متدرِّج من هذا الصِنف! أجابت باحتقار.

رأى والداها من جهتها أن الأمر غير قابل للتصديق: ما كان رجل وامرأة مجرّبان ليستطيعا إخفاء علاقات سرية كهذه طويلاً، فكيف بالأحرى مع صبي وفتاة بلا تجربة. وبالرغم من براعتهما في التظاهر باللامبالاة، كان ينبغي التكهن بشيء ما في النهاية ـ لكن سازوكيه وشونكين لم يثيرا يوماً أدنى شك. على أي حال، لم تكن شونكين تملك فرصة الانعزال طويلاً معه مذ بات يعمل الاثنان، وقد أصبحا زميلي دراسة عند الأستاذ نفسه. وبما أنّها كانت متقدمة عليه، فقد سُمح لها أحياناً أن تعطيه درساً، غير أنها لبثت المعلمة المتعجرفة جرياً على عادتها وكانت تعامل سازوكيه كمجرد دليل لم يتصوّر الخدم إطلاقاً أيّ التباس في علاقاتهما: كانت هناك مسافة كبيرة بين السيدة وخادمها. كانوا يرون في الواقع أن أخرى غير شونكين كانت أبدت طيبة أكثر.

لمعرفة الحقيقة فكّر الوالدان في التدقيق مع سازوكيه. لا يمكن أن يكون المسؤول عن حالها سوى واحد من التلامذة. بيد أن سازوكيه أجاب عن كل أسئلتهما بـ«لا أعرف». لم يستطع، من فرط ارتباكه، أن يكتم عصبيته. ناقض نفسه تحت الوطأة، تُراه كان يخشى غضب شونكين إذا تكلّم؟ لذا شرع في البكاء.

«نرى جيداً أنك تحاول مساعدتها، قالا له، لكنك تدين لنا بالطاعة. يمكنك أن تذكر لنا اسم عشيقها على الأقل، من أجل

صالح ابنتنا».

انتهى موقف سازوكيه إلى إقناعهما بأنه هو. ألم يقسم بعدم التفوّه بشيء؟ مع خوفه من غيظ شونكين الذي يؤلمه، ووابل الأسئلة التي ألقياها، بدا صمته لهما مثيراً للشفقة.

«لم يعد بإمكاننا منع ما وقع، خاطب الموزويا بعضهما البعض. من حسن الحظ أن يكون سازوكيه. لكن كيف استطاعت التنكّر لمشاعرها الحقيقية هكذا، حينما عرضا عليها السنة الفائتة، أن تتزوج سازوكيه؟».

أما وقد أراحا جزءاً من همهما، وكونهما مرغمين على الرضوخ للواقع، أرادا التصرف بسرعة لتجنّب الثرثرات وتحدّثا عن زواج شونكين ثانيةً.

وعاندت كالسابق: «قلت لكما السنة الماضية إن الزواج غير وارد بالنسبة إليّ. حنوّكما يؤثّر فيّ، إنما وبرغم ضرارتي، فإنني لن أقبل مهانة الزواج من رجل ذي أصل وضيع. لا يمكنني أن أرضى به مراعاةً للولد الذي أحمل».

- لكن هلاّ ذكرت لنا أخيراً إسم والد هذا الطفل؟.

رجتهما وقد امتقع لونها بألاّ يطرحا عليها المزيد من الأسئلة. في كل الأحوال، لم تكن تفكر في الزواج من الرجل الذي تكتم اسمه.

لم يستطع والدا شونكين اللذان غرقا ثانيةً في الشك، أن يتصورا عشيقاً آخر. فكّرا أن الخجل من الاعتراف المتأخّر جداً هو الذي أحجم شونكين. وفي انتظار معرفة الحقيقة، اتخذا تدابير لإرسال الأم

المستقبلية إلى شواطىء «أريما» إلى حين ولادة طفلها. كان شهر أيار. وقد بلغت شونكين السابعة عشرة.

مكث سازوكيه في أوزاكا، وذهبت شونكين برفقة خادمين إلى «أريما» حيث بقيت حتى تشرين الأول. شهر ذاك، أنجبت صبياً صُدم والداها، من النظرة الأولى، بشَبَه الطفل بسازوكيه. بدا لهما أن اللغز حُلّ أخيراً، لكن شونكين استمرت في النفي بشدة أن يكون سازوكيه والد الطفل. صمما على جعلهما يتواجهان. فور حضوره انتصبت شونكين قائلة: «ماذا قلت لوالديّ يا سازوكيه كي يشكا فيك؟ إنني أخشى رعونتك. فتلكن لديك اللياقة في إقناعهما ببراءتك، إن كنت تحسن ذلك، كي لا يبقى هناك أدنى شك».

كان لذلك الإلحاح وقع الصفعة على الفتى. قال مستديراً ناحية الأهل: «كيف أجرؤ؟ منذ يفاعتي أدين بفضلكم عليّ. كيف يسعكما أن تتخيّلا خيانة مماثلة من قِبلي؟ تهمتكما غير عادلة».

بدا اللغز من حينها عسير الحل أكثر من أي وقت مضى.

«ألا تشعرين ولو بظلٍّ عاطفة أمومة إزاء طفلك؟ سأل والدا شونكين ابنتهما. إذا كنت تعاندين، كيف نستقبل في منزلنا هذا الولد بلا أب؟ إذا ما استمريت، وبرغم نصائحنا، في رفض تسوية الوضع، فسنكون مجبرين مع بالغ أسفنا على وضع الصبي في مكان آخر».

أمِلا في أنهما بإقلاقها في موضوع الطفل ستنتهي إلى الرضوخ. «أعطياه لمن تشاءان، ردّت ببرودة. لقد قررت العيش عزباء. الزواج لي بمثابة تقييد الذراعين والقدمين».

وهكذا تبنّت عائلة أخرى طفل شونكين. لعلّه ما فتئ حيّاً، كونه وُلد في الثانية من عصر «كوكا». لا نعرف عنه المزيد، لكنّ ذوي شونكين رتبا وضعه بطريقة ملائمة بلا ريب. أما هي فقد استأنفت حياتها المألوفة بوقاحة. عادت تتابع دروسها، يقودها سازوكيه ممسكاً بيدها، كأنّ شيئاً لم يحدث.

تواصلت تلك العلاقات الملتبسة بين الخادم وسيدته، بين رفيقي الدراسة، وبين العاشقين، طوال سنتين أو ثلاث، حتى بلوغ شونكين العشرين من العمر. عام ذاك توفي شونشو الموسيقيّ فانتهزتها فرصة لفتح دروسها الخاصة. تركت منزل ذويها، وأقامت عند جسر يودويا، ولحق بها سازوكيه.

أجاز لها الموسيقيّ شونشو قبل وفاته، وهو أقرّ من زمان بموهبة شونكين الحقيقية، أن تعلّم حالما ترتأي ذلك. منه حملت اسم شونكين، المكوَّن من جزء من اسم معلّمها وبرضاها، وتحت هذا الاسم افتتحت دروسها الخاصة.

عاشت شونكين مع سازوكيه في يودويا، لكنها مع ذلك لم تبدِّل موقفها منه. أعانها دوماً كدليل وخادم. كان يناديها في المجتمع «أستاذة» وكانت تخاطبه فقط باسمه الصغير. أكثر ما كانت تأبه أن تتحوّل إلى زوجة سازوكيه. فرضت عليه امتثال واحترام الخادم تجاه سيدته، واعتبار التلميذ إزاء معلّمته. إذا ما حدّثها دون كلفة لا تصفح عنه بسهولة وتعيِّر انعدام تهذيبه. لم يكن التلامذة الجدد، غير العارفين بالوضع الحقيقي، يرتابون في شيء. يُقال إن حاشية عائلة موزويا كانت تهمس غالباً: «ترى كيف يكون محيّا آنستنا المزهوة عندما تتحدث مع سازوكيه في حميميّة؟ نودّ كثيراً أن نعرف».

قيل، لِمَ ذلك الموقف المتبادل بين الكائنين الشابين؟ في تلك الحقبة، كان أهل أوزاكا يولون أهمية أكبر للصف الاجتماعي وثروة الزوجين أكثر مما يفعل سكان طوكيو. في أي حال، ما برح تجار أوزاكا، إلى يومنا هذا، يشكلون جماعة متعجرفين. انطلاقاً من هنا يمكننا أن نتصور زمن الإقطاع. كانت شونكين المزهوّة بحالها كفتاة من الطبقة الراقية، نعتبر سازوكيه أدنى منها مستوى. علاوة على ذلك، فإنّ ذا العاهة يميل دوماً إلى التعويض عن نقصه الجسديّ. «إذا ما اعتبروا سازوكيه زوجاً لي، كانت تفكّر، فسيحتقرونني بلا ريب». ينبغي أخذ ذلك بعين الاعتبار للحكم عليها. كان عليها وقد اختبرت رغباتها الحسية مع رجل من مرتبة اجتماعية أدنى، أن تخجل بعلاقاتها وتسيء معاملة سازوكيه، وتتصنّع اللامبالاة. لعلّها لم تعتبره، مدفوعةً بغريزة الحياة والحاجات الجسدية، وواعيةً الهوّة التي تفصلهما اجتماعياً، سوى أداة لمتعتها.

بحسب كاتب السيرة فإن «شونكين، المعتنية جداً في ما يختص بالنظافة، كانت ترفض ارتداء الملابس التي بالكاد ملطخة. تبدِّل ملابسها الداخلية كل يوم، ويجب أن ينظف بيتها صبحاً ومساءً. ذرّة غبار تُغيظها، وكانت تتفحص حالة الوسادات والسجّاد قبل أن تجثو وهي تمسّها بأطراف أناملها ذات يوم، كان تلميذٌ مصابٌ بسوء هضم يتمرن في حضورها. كان نَفَسُهُ، دون علمهِ، كريهاً. وعلى عادتها نقرت شونكين ثالث أوتار آلتها في حدّة، ثم وضعتها أمامها، ولاذت بصمت كئيب. وسألها التلميذ غير عارف ماذا يفعل. أجابته «إذا كنت عمياء، فإنني أملك حاسة شمّ ممتازة. إذهب وتمضمض».

حينما تفقد امرأةٌ، بطبيعتها صعبة المزاج، نظرها، فإن الذين

يخدمونها يومياً يصطدمون بتعقيدات تفوق المخيلة. لم تكن واجبات دليل شونكين مقتصرة على مرافقتها باليد. كان ينبغي عليه أن يأخذ على عاتقه مساعدتها في تناول الطعام والشراب، ثم في النهوض، والنوم، والاستحمام، والذهاب إلى الحمام. هكذا كان الأمر، في أي حال، مذ كانت طفلة، ومتطلباتها أليفة له، بحيث أنه وحده كان يستطيع إشباعها. في هذا أيضاً، لم تكن في غنى عنه.

كانت قبلاً، في منزلها العائليّ، وأمام ذويها وأخوتها وشقيقاتها، تلجم متطلباتها. ولّما أصبحت وحيدة من بعد، أرخت العنان لنزواتها وأذواقها المرهفة، وثقلت أعباءُ سازوكيه أكثر فأكثر.

العجوز تيرو شيجيزاوا كشفت لي جوانب من تلك الأحوال:

«لدى خروجها من المرحاض، لم تكن معلّمتي تغسل يديها أبداً. لم تكن معتادة على الاهتمام بهذه التفاصيل، كان سازوكيه يقوم بكل شيء لإعفائها منها. كذلك عندما كانت ترغب في الاستحمام على سبيل المثال... أعرف جيداً أن السيدات النبيلات كنّ يدعنَ الآخرين يحمّمون كامل أجسادهن دون إبداء أيّ انزعاج. معلّمتي أيضاً لم تكن تُظهر أي خجل أمام سازوكيه. جانب من هذا يعود بلا ريب إلى ضرارتها وإلى اعتيادها على حضور سازوكيه، لكن لا الطهارة ولا الخجل كانا يدانيانها. من ناحية أخرى، كانت مولعة بالأشياء الأنيقة. مذ أصبحت عمياء، لم تعد تستعمل المرايا بالطبع، لكنها لم تكن تشك في جمالها. كانت تهتم كثيراً، كسائر النساء الأخريات، باختيار كيمونواتها، وتصفيفة شعرها».

بفضل ذاكرتها الخارقة، تذكّرت شونكين طويلاً ملامح وجهها كما

كان في التاسعة من عمرها. ردّات فعل الناس المحيطين بها، والإطراءات التي تتناهى إلى مسامعها كانت كافية من ناحية ثانية للتأكيد لها بأنها امرأة جميلة. لذا كرّست وقتاً طويلاً لتبرّجها.

كانت تربي العنادل وتحضّر دهن التجميل من روثها ومن طحين الأرزّ. كانت تستعمل أيضاً عصير الفاكهة ولا تكون راضية إلاّ حينما يكون جسدها أملس تماماً. على اللواتي يلعبن الآلات الوتريّة أن يحترسن لطول أظافر اليد اليسرى. وكان سازوكيه يقلّم ويبرد أظافر شونكين كل ثلاثة أيام.

لم يتزوّج سازوكيه أبداً ولم يعرف امرأة أخرى سوى شونكين، حتى وفاته. عن عمر ثلاثة وثمانين عاماً. لم يكن في وسعه إذن أن يُجري مقارنات. لكنه سمح لنفسه أحياناً في أفول حياته، عندما كان يعيش منعزلاً، أن يذهب إلى حدّ الاعترافات. كان يؤكّد بصوت يرتجف كبرياءً، أن ملمس شونكين كان الأنعم في الكون وأطرافها الأكثر ليونة ومرونة. لم يكن العجوز يتباهى بشيء آخر. كان يقول، رافعاً يده: «كانت قدم معلمتي صغيرة بحيث تقف على راحة اليد هذه»، ويضيف ملامساً وجهه: «كان عقبها أنعم من وجنتي».

كانت شونكين قصيرة القامة تبدو نحيفة في كيمونواتها، لكنها في الحقيقة ممتلئة. بشرتها البضّة حافظت طويلاً على نضارة وألق الشباب. كانت تحبّ الدجاج والسمك وتبدي شراهتها لساشيمي[1] المرجان[2] بالنسبة إلى امرأة في عصرها، لم تكن هذه الأذواق

(١) (رقاقة السمك النيئة الوسطية ـ المترجم).

(٢) (نوع سمك من فصيلة الاسبوريات ـ المترجم).

الأبيقوريّة شائعة. كانت تحتسي كل ليلة، قبل العشاء، نصف ـ قارورة ساكيه، الأمر الذي قد يكون أتاح لها المحافظة طويلاً على النضارة الصبويّة.

ضريرة تأكل توحي بالشفقة، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بامرأة جميلة. كانت شونكين واعية الأمر على ما أعتقد، ولم تكن ترضى بوجود أحد خلال وجباتها، باستثناء سازوكيه. حينما تكون مدعوة، لا تسكب في وعائها سوى من أجل الشكليّات وبكمية قليلة لنَيْلِ سمعة الرزانة الفائقة. كانت تحبّ، في الحقيقة، الأكل دون أن تكون لديها شهية كبيرة. صحنان من الأرزّ كانا يكفيانها، مع بضع رقاقات من السمك ومن الخضار. إنّما كان يلزم سازوكيه أصناف متنوعة وبكميات قليلة جداً بحيث أن إرضاءها طرح عليه مشكلات صعبة.

نتكهن على أي حال بحجم الهموم التي كانت تأسره لقاء أجر زهيد. فلجهة الراتب، كانت تعطيه القليل من مال الجيب، الذي لا يكفيه ثمن تبغه، وما كان يحقّ له بملابس جديدة سوى من أجل «عيد الموتى» ونهاية السنة.

لم يكن، مع ذلك، ينعم لدى حلوله أحياناً مكان شونكين بجانب تلامذتها، بعرفان الجميل. الأتباع والخدّام تلقّوا أمراً بمناداته السيّد سازوكيه[٣] فقط. وحينما كانت شونكين تزور تلميذاً برفقته، كانت تجعله ينتظر عند الباب.

ذات يوم، تألّم سازوكيه من سنّ مسوّسة وانتفخ خدّه الأيمن. وبحلول الليل، أمست الوخزات لا تحتمل لكنه تجلّد على الأوجاع

(٣) (الدون ـ سازوكيه في النص ـ المترجم).

دون الإفشاء بحاله المؤلمة. كان يذهب بين الفنية والأخرى ليتغرغر. وحاذر اللهاث بوجه شونكين مهتماً بها كالمعتاد. ساعة النوم، طلبت إليه أن يمسّد لها كتفيها والخاصرتين، وهذا ما فعله طويلاً، ثم أن يدفّىء لها قدميها. تمدّد سازوكيه على الأرض بطاعة ووضع قدمي شونكين على بطنه. وسرعان ما برد صدره في حين كانت حرارة ريش اللحاف تخنقه. كان وجهه يلتهب. ولـمّا بات عاجزاً عن احتمال الألم المتصاعد، سند قدمي معلّمته إلى خده وتوصّل هكذا إلى تلطيف وجعه. لكن شونكين ضربته بعنف، فنهض سازوكيه متأوّهاً. «كفى! صرخت. طلبت إليك أن تدفىء لي قدميّ على صدرك وليس على سحنتك. ظننتَ أنكَ تغشني كوني لا أرى ذلك، لكن العميان ليسوا في حاجة إلى عيونهم لرؤية الشيء. أعرف أن أسنانك تؤلمك. أحسّ بتورّم خدّك الأيمن وبحرارته أكثر من الأيسر. إن كنتَ تألمت بهذا القدر فلِمَ لمْ تبح لي بالأمر؟ هل تعتقد أنني غير مؤهّلة لمعاملة خادم بالحسنى؟ تنبل، غير صالح لشيء! نواياك كريهة وأحتقرك!».

لم يكن سوى مثال لأسلوب تعامل شونكين مع سازوكيه. إذا ما أظهرَ مرة لطفاً إزاء الفتيات وهو يعطيهن درساً، فإنها لم تكن تحتمل ذلك، وتصحو شكوكها، وإن عبّرت عن غيرتها ببضع كلمات، فإنّ موقفها تجاه سازوكيه كان بالنسبة إليه محنة أكثر إيلاماً.

* * *

إمرأة عزباء، تعيش وحيدة، حتى وإن كانت تملك أذواقاً مترفة، فإنها تخفّف من إسرافاتها. وقد حدّت، هي المعتادة على أشهى الأطعمة وعلى التأنق، مصاريفها في شكل عاقل. كانت شونكين موظِّفة خمسة أو ستة خدام وكانت ميزانيتها الشهرية مرتفعة جداً.

ويجب أن تضيف إلى كل ذلك تربيتها للعصافير.

كانت تحبّ بنوع خاص عنادل «هوتو توجيزو» وهي تساوي حتى اليوم ما يوازي عشرة آلاف ينّ نظراً إلى جمالها وتغريدها. عصافير من الأكثر ندرة والأغلى ثمناً، ينتظر منها أن تغني، عدا النغمات المألوفة التي تطلقها محلقة فوق التلال، عندلة حادة من خمس نغمات أخرى أيضاً. والعنادل البرية ليست قادرة، في العادة، على نوعي الغناء هذين. عوض العندلة الحادة، لا تستطيع تصويت غير أربع نغمات بلا رنين، ووحده التدجين الملائم يسمح بتجويد غنائها. يجب القبض على العصفور وهو لا يزال بلا ذنابى، ووضعه مع طير معلّم ليكرّر عليه الغناء حتى ينمو ذنابى العندليب، وإلا اكتفى بتقليد زقزقات أمه ولا يعود ممكناً الحصول على شيء منه.

الطيور الماهرة درّبت على هذا النحو أيضاً، والأكثر شهرة خصصت بأسماء مثل الفينيق أو رفيق ـ للأبد. وعندما يعرفون أن هاوياً يملك ذلك العندليب أو ذاك، يجلب الناس عصافيرهم لكي يعطيها دروساً، لأيام عدة على التوالي.

كان يحدث أن يُجلب عصفور إلى منزل وتجتمع فيه العصافير «المبتدئة» من حوله، كما في المدرسة. وتتفاوت المواهب الطبيعية لدى كل عصفور. بعضها موهوب للميلوديا، والبعض الآخر للعندلة الحادة، أو للنغمات الختامية المتنوعة، أو للنغمات الزخرفية أو للنوطات المغزولة على أرغن. من غير السهل الوقوع على طير ماهر، لكن إذا ما اكتشفنا واحداً، تكون قيمته ثمينة ويجني مبالغ محترمة.

سمّت شونكين أفضل مغنٍّ تملكه «بالطِبَال السماوي» وكانت ترفه

عن نفسها بالاستماع إليه طيلة النهار. كان إنشاده الرائع يتضمّن عندلات صافية جداً، تذكّر بآلة موسيقية متقنة أكثر منها بحنجرة طائر. نوطاته ذات الرنين الغني والعذب تعبّر بامتلاء. وكانت شونكين تولي هذا «الطِبَال السماوي» عناية كبيرة بينما لم يكن الخدم يخصصون وقتاً كافياً لغذائه.

تحضّر عصيدة العندليب وفق معايير معقّدة ـ فمن أجل الوجبة البيضاء تطحن الصويا مع الأرزّ، ثم يمزج مع نخالة الأرزّ. وتحوي وجبة السمك لحم الشبوط المجفّف، وفرخاً نهرياً وأسماكاً أخرى من المياه العذبة، يضاف إليها عصير ورق اللفت.

لتجويد غنائه يعطى العندليب يومياً حشرتان تعشّشان في جذوع العارشات، حيث يجب البحث عنها. كانت شونكين تربي خمسة أو ستة من هذه الطيور في العادة وخادمات عديـدات كنّ يهتممنّ بها دائماً.

إذا ما حدّقنا في العندليب، فإنّه لا يغنّي. لذا يُحبس في قفص خاص موشّى بخشب «البولوونيا» ومغطّى بشبكة من الورق الأبيض في الداخل، بحيث يبقى النور موزّعاً. كانوا في الماضي يستخدمون خشب الصندل الأحمر أو الأبنوس لإطار القفص. قد يكون ذلك الهيكل منحوتاً، أو مرصّعاً بالصدف أو مزيناً بالبرنق. فتصبح هذه الأقفاص أشياء فنية ثمينة، وحتى يومنا هذا يدفعون ثمنها مائة، أو مائتين، وأحياناً خمسمائة ينّ.

كان قفص «الطِبَال السماوي» مزيناً بشكل رائع. يقال إن زخرفاته مستوردة من الصين. على الهيكل الصندلي الأحمر ألصقت رسوم

مرصعة بالياقوت الأزرق ومزينة بالنقوش الدقيقة. كانت شونكين تحتفظ بهذا القفص في الغرفة التي تجلس فيها يومياً، موضوعاً على رفّ المخدع أمام النافذة الصغيرة. حينما كان غناء «الطِبَال السماوي» الفاتن يعلو، كانت سيدته تبدو في مزاج حسن دائماً. الخادمات كُنّ يبتعثن أيضاً هذا الغناء، عندما يستطعن، برشّ الطير ببضع قطرات ماء. كان العندليب يُسمع عندلاته في الطقس الجميل بخاصةٍ، وأكثر تخصيصاً ابتداء من نهاية الشتاء حتى الربيع.

يعيش العندليب طويلاً، إذا ما اعتُني به جيداً، لكن دون العنايات الخاصة، وبين أيدٍ خرقاء، يسقم سريعاً. مات «الطِبَال السماوي» في نهاية سنته الثامنة ومرّ وقت طويل قبل أن تتمكن شونكين من العثور على نظير له. ونجحت بصعوبات كبيرة في تدريب عندليب آخر جدير بخلافته، وأسمته «الطِبَال السماوي الثاني» وأحبّته بدوره. كان صوته قادراً على منافسة صوت الطير الخالد، احتفظت به شونكين بجانبها في قفصه، واهتمت به ليلاً ونهاراً.

كانت تقول لتلامذتها باستمرار: «يجب أن نصغي جميعاً إلى غناء الطِبَال السماوي. لقد ولد من عندليبين عاديين تماماً، ولم يتدرب بلا جدوى مذ طلع من تحت جناحي أمه. لم يعد غناؤه غناء عصفور غابات. لا نعومة في صوت العندليب البري إلاّ متى راقته الساعة والمكان. ميزاته لا تفرض ذاتها بذاتها. ولكن إذا استمعنا إلى العصفور ـ معلّم الطِبَال السماوي، يمكننا أن نستدعي المناظر العذبة لوادٍ سحيق، خرير السواقي، غمامة شجرات الكرز المزهرة على قمة هضبة، ناسين حياتنا في مدينة صاخبة مزدحمة. هكذا يطلق الفن تحدياً للطبيعة ونكتشف فيها سرّ منابع الموسيقى. لقد وُلدتم بشراً،

لكن العصافير متفوقة عليكم في ذلك».

إلى جانب عنادها، كانت شونكين تحبّ أيضاً القبّرة أو دوريّ الغيوم، الذي يطير صوب السماء مستقيماً. حتى في القفص، ترتفع القبرة على هذا النحو. لذا يصنعون لها قفصاً ضيقاً ومرتفعاً يبلغ أحياناً ثلاث أو أربع أو خمس أقدام. لنتمكّن من تقدير ميزة غنائه الحقيقية، ينبغي ترك العصفور طليقاً حراً في طيرانه، إلى حد تواريه عن الأنظار. حينها يتبع الذين يسمعونه أغنيته الصاعدة إلى السماء، ومهارته في «ثقب الغيوم» تفرح أسماعها. يعود الطير كالعادة إلى قفصه بعد بقائه وقتاً معيناً في الفضاء. هكذا كان يختفي طيلة عشر أو ثلاثين دقيقة والأفضل يبتعد لوقت أطول.

في سباق القبّرات، يضع أصحابها الأقفاص على خطّ واحد ويفتحون الأبواب في آن معاً. تطير العصافير، وتحلّق كما لو أنها ترقص. آخر قبّرة تعود إلى قفصها تفوز بالجائزة الأولى والقبّرة غير المدربة جيداً تخطىء، لدى عودتها، بالقفص أو تذهب لتحطّ إلى مسافة معينة من قفصها. لكن العصافير لا تخطىء عادة، إذ أنها ترتفع في السماء عمودياً وتخبط بأجنحتها لبعض الوقت وتجمد، ثم تنحدر نحو الأرض مستقيمة.

عند جسر يودو، كان جيران شونكين يرون الموسيقية العمياء في أيّام الربيع المشمسة تفلت قبّرتها في السماء. وكان سازوكيه منتصباً دوماً بجانبها، مع الخادمة الموجلة بالعناية بالقفص. كانت شونكين تعطي خادمتها الأمر بفتح الباب، وكان العصفور يفرّ سعيداً، محلّقاً أعلى فأعلى، مطلقاً تغريده إلى حين تواريه في الضبابة. فترفع الموسيقية عينيها الضريرتين كما لتتبع هذا الطيران، وترهف السمع

لالتقاط أصداء النغم بين السحب.

هواةٌ آخرون كانوا ينضمون أحياناً مع قبّراتهم المفضّلة، ويَظهر الجيران المتنبّهون فوق سطيحاتهم كي لا يفوّتوا هذا المشهد. وكان بينهم حتماً بعض الفضوليين، الراغبين في رؤية الموسيقية أكثر من قبّراتها. أكانت تبدو ضراراتها سحراً إضافياً؟ حينما كان سازوكيه يقودها إلى منزل تلميذ، كان يبدو محيّا شونكين الصامتة مقطّباً. لكن عندما كانت تُطلق قبّراتها كانت تروح تتكلّم بحيوية فيغدو جمالها مشعاً وفتيّاً. لعلّه التحول الذي يترقّبه الفضوليّون.

إلى جانب القبّرات، امتلكت شونكين في الوقت نفسه، وفي بعض الفترات، طيور أبو الحن وببغوات وقرقبات وخضيريات ذات عيون بيضاء الدوائر. وحين تربّي خمسة إلى ستة عصافير من كل نوع فإنه أمر طبيعيّ أن تتضاعف مصاريفها كذلك.

* * *

في المنزل، كانت شونكين تبدو مرتدية قناع المزاج الشيطاني، لكنّها تصبح في الخارج اجتماعيةً فجأةً، مدعوَّةً مملوءةً لطافةً وتواضعاً في تصرّفها وكلامها. وكان سحرها يشعّ حتى أن إحداً لم يكن في إمكانه أن يتكهن بأنها تسيء معاملة سازوكيه غالباً، وبأنها تضرب أو تهين تلامذتها في منزلها. كانت تحبّ التفاخر بسخائها أمام الآخرين. سخاءٌ يمكن انتظارهُ من أحد أفراد عائلة موزويا، إكراميات، هدايا لمناسبة عيد الموتى أو نهاية السنة، للخدّام، للخادامات، لخادمات بيت الشاي، لحاملي الهوادج أو لجارّي المركبات. مسرفة؟ تقولون. لكنها لم تكن ترمي المال من النوافذ. شونكين إبنة تاجر من دوشو وكانت مدركة ما تفعله. مولعة بالبذخ

في شكل مفرط، وفي الوقت نفسه بخيلة وحريصة. روح كبريائها، وحاجتها الغريزية إلى التعالي حملتاها على منافسة أناس محيطها بمسار حياتها. لكن حينما يكون الأمر متعلقاً بإرضاء عنجهيتها، فإنها لم تكن تصرف بلا داع.

كانت تظهر في مختلف الظروف، على أي حال، باردة تحسب كل شيء، مبديةً في بعض الأحيان تَشَدُّدَ بخيلة. المبلغ المطلوب من التلامذة على تسجيلهم، والأقساط الشهرية التي فرضتها شونكين لم تكن تتلاءم مع تسعيرة أساتذة آخرين. ومع أنها ليست إلا امرأة، فإن كبرياءها كانت تستوجب أجراً يوازي الأجر الممنوح لكبار المعلّمين، الأُوَلْ في مهنتهم. كانت تذهب إلى حد القلق في شأن العطيّات المألوفة في وسط ونهاية السنة، متمنية أن تكون أسخى قليلاً وتلمّح إلى تلامذتها بذلك.

كان لديها تلميذ ضرير، ومن عائلة فقيرة جداً بحيث أنها لم تكن قادرة على دفع الأقساط الشهرية في شكل منتظم، وغير قادر كذلك على تقديم الهدية التقليدية في منتصف السنة. ولتعبّر لها عن عرفان الجميل على الأقل، تهديها علبة بسكويت بواسطة سازوكيه.

حاول هذا الأخير الدفاع بخجل عن قضية الصبي الصغير، لكن شونكين صرخت: «أعتقد أنني فهمت بأنك تجدني متطلّبة كثيراً في ما يختص بالأقساط وهدايا العُرف؟ هذا لأنك تجهل كل شيء عن الأمر، دون جدول محدّد، لا تعود كياسة علاقات التلميذ بمعلمه موجودة. هذه الهدية البخسة تُعدّ إهانة للتهذيب. أعتبرها إهانة متعمدة. لقبلت حتماً، في حالة استثنائية، تلميذاً بلا مقابل، لو أظهر مرهبةً خارقةً تُنبىء بمستقبل باهر. التعالي على عذابات الفقر والتواصل إلى

مرتبة معلِّم على الرغم من كل شيء، هو أن تظهر ما تحمله من إمكانات أخرى ـ بيد أن هذا الولد لا يتميّز سوى بوقاحته، في حين أنه لا يملك، جهة الموسيقى، أي مستقبل. يصنع جيداً بتخلّيه عن كل أمل. إذا كان راغباً في متابعة دروسه، يمكنه الاختيار بين أساتذة الموسيقى العديدين في أوزاكا، لكن إحرص على عدم عودته إلى هنا بعد اليوم. لقد انتهيت معه». كل الاعتذارات التي أبداها سازوكيه لم تؤثر فيها. كان رفضاً نهائياً.

في المقابل حينما كان تلميذ يهبها هدية ثمينة، كانت تبشّ في وجهه طيلة النهار وتطريه، لكن الولد لم يكن يستسلم لخداع الأمر. كان التلامذة يجدون تلك الملاطفات شيطانيةً ويخشون «إطراءات» المعلمة التي تتفحّص الهدايا وتفتح علب الحلوى للتأكّد من محتوياتها.

عندما كانت تُجري حساباتها، كانت تطلب العون من سازوكيه وتراجع الحسابات على عدّادة. قلّ ما كانت تنسى قائمة حسابها عند تاجر الأرزّ أو الساكيه بعد شهرين أو ثلاثة. بالنظر إلى الترف الذي كانت تحيا فيه، لم تكن تمشي أنانيتها بلا دناءة. المال الذي كانت تصرفه على نفسها، كان يرافقه حسم من مصاريف أخرى، من رواتب مستخدميها. وحدها كانت تعيش عند قدم السيد «دايميو» مُرغمة سازوكيه وموظفيها على التقتير الأكثر صرامة. حصّتهم من الأرز اليومي كانت موضوع حصر نفقات، وما كانوا يحظون يومياً، في الواقع، بكمية الغذاء الضرورية. وكان الخدام حينما يكونون لوحدهم يتحدثون في الأمر بحرية: «معلمتنا تدّعي أن قبّراتها وعنادلها بالنسبة إليها أكثر إخلاصاً منا، كانوا يقولون، هذا ليس مدهشاً: ألا تعاملها أفضل منا؟».

* * *

أعطت عائلة موزويا شونكين المبلغ الشهري الذي تعهّدت به طالما والدهـا على قيد الحياة. وبعد وفاته، خلفه شقيقها وورث أمواله، لكنه لم يَرْعَ أخته بذلك السخاء. لدى نسائنا في أيامنا هذه، ميل إلى الترف، لكن الرجال في ذلك الزمان، كانوا يسهرون على مصاريفهن بأنفسهم. مهما تبلغ ثروته، بقدر ما يكون بيته عريقاً ومحترماً، بقدر ما كان يعيش الرجل في تواضع، حريصاً على ألاّ يتهم بالتباهي، وألاّ يصنّف بين حديثي النعمة. استطاعت شونكين أن تحيا في استقلالية بفضل حنان وشفقة ذويها، بيد أن أفراد عائلتها الآخرين ما كانوا مجبولين على كرم كهذا. قرر مجلس العائلة أنها ستتلقّى في المستقبل دخلاً شهرياً محدداً، وأنه خارج ذلك المبلغ، لن تكون طلباتها مسموعة. هذا التحوّل يفسر بخلها جزئياً، إلاّ أنها استمرت في تخصيص أكثر مما كان ضرورياً.

برغم مرحها إزاء تلامذتها، إلاّ أنها ظلّت معتبرةً معلمة ـ موسيقية. هي نفسها طالبت بهذا اللقب، إضافة إلى اعتراف جميع النقّاد المتجرّدين. والذين كانوا يكرهونها بسبب تصرّفها المتعالي كانوا يحسدون موهبتها سراً ويخافون المقارنات. عرفتُ فناناً عجوزاً سمع في شبابه عزف شونكين على الشاميزن. أسلوبه يختلف عن أسلوب شونكين، لكنه يقرّ بأنه لم يعرف أبداً موسيقياً ببراعة العزف هذه.

في بداية مهنته عبّر دانبي بعد سماعه شونكين عن أسفه لكونها امرأة. «لو كانت رجلاً، قال، لدرست الشاميزن الكبير ويا للمهارة التي كنا حصلنا عليها!».

في الحقيقة، كانت بلا ريب امرأة استثنائية الموهبة.

إذا كان التحفظ والتواضع ليّنا تصرّفاتها، فإن شهرتها كانت أكبر بعد. نشؤوها في عائلة ثرية وجهلها صعوبات الحياة كانا تعاسة كبيرة لها. غير أنها لم تكن قادرة إلاّ أن تكون هي المسؤولة عن مصائبها الخاصة إذا كان الناس يتجنبونها ويشتكون من نزواتها وخبثها. موهبتها وحدها كافية على أي حال لصنع العداوات لها ولن تعرف المجد حتى آخر حياتها. غالباً ما كان تلامذتها ينجذبون بشخصيتها قبل دخول صفها. بعضهم منحها ثقة كبيرة بحيث كانوا يقبلون بداءة الأمر النظام الأقسى، والإهانات والضرب. لكن قلّة تحمّلت ذلك طويلاً وتركها معظمهم تباعاً. لم يكن مجرد «الهواة» يصمدون شهـراً بشكل عام.

شذوذ العبقرية حمل شونكين بلا ريب إلى دفع قساوة منهجها حتى أقصاها. غير أن تصرفاتها لامست السادية في النهاية. التسامح والطاعة الصابرة جداً اللذان كان يبديهما تلامذتها جعلاها تفقد كـل سيطرة على نفسها. ظنّت أنها تؤكد سمعتها كمعلمة بإظهار نفسها أكثر قساوة.

العجوز تيرو شيجيزاوا تقول لي إنه كان لدى شونكين القليل من التلامذة وأنهم كانوا منجذبين إلى جمالها خصوصاً. يؤكدون حتى أن قساوتها كانت متعمدة وترمي إلى تثبيط همّة الذين لا يفكرون في العمل جدياً وأنها كانت وحدها تنمّي لديها الرغبة التي توحيها لهم. في بعض الحالات، كان ينبغي أن يؤجّج هذا التصرف الرغبة أكثر، وأتصوّر أنّ بعضهم، مهما يكن من عائلة عريقة، كان يفضل التعنيفات على التمرين الموسيقي. كانت ضربات العمياء الجميلة تمدّهم دون شكّ بلذة غريبة، لا بدّ أنه كان في حوزة بعضهم جان ـ

جاك روسّو. . .

* * *

نأتي إلى المأساة الثانية التي وقعت على شونكين. ليس ممكناً تحديد فاعلها بوضوح ولا تبيان الدوافع التي كانت لديه لجرحها. لا تحمل السيرة الذاتية إلاّ القليل من الايضاحات حول هذا الموضوع، إنّما يسعنا أن نفترض، وللأسباب السالف ذكرها، أن شونكين جرّت على نفسها ضغينة قاتلة وأنها باتت ضحية انتقام.

في تلك الحقبة كان شاب يدعى ريتارو، وهو ابن تاجر أرزّ فاسق مشهور من توسابوري، قد أصبح تلميذها. كان يُظهر نفسه معتداً للغاية بمواهبه الموسيقية ويتعلّم معها الكوتو والشاميزن.

وكان يتبجّح مسروراً أيضاً بثروة والده، ويسحق بغروره التلاميذ الآخرين، الذين كان يعاملهم كخدم وموظفي مخازن والده، كونه واعياً واقعه كفتى ذي دلال.

كانت شونكين تحتقره، غير أنه كان يقدّم لها الكثير من الهدايا الثمينة بحيث ما كانت تصدّه، وتعامله بكثير من اللطف. بيد أن ادعاء ريتارو لم يكفّ عن التنامي. ما كان يظهر سوى الاحتقار لسازوكيه ولا يقبل منه تعليماً، طالباً الدروس من شونكين نفسها. وأتى اليوم الذي أصبح فيه غضب هذه الأخيرة على شفير الانفجار.

كان كيوياي، والد ريتارو، قد اصطفى ركناً هادئاً في تينغاجايا لبناء منزل ريفي حيث سينسحب في شيخوخته. ذات يوم من شباط، أقيم استقبال لتأمّل شجرات الخوخ المزهرة ودعيت شونكين بواسطة ريتارو. ولبّت الدعوة يرافقها سازوكيه.

عزم المدعوّون الآخرون على جعل سازوكيه يشرب، وسط ارتباكه الشديد. كان معتاداً على شرب قدح من الساكيه كل مساء مع شونكين، لكنه لم يكن أبداً سكيراً. فضلاً عن ذلك لم يكن يستطيع إتمام واجباته كدليل، لو ثمل. حاول إذن التظاهر فقط بأنه كان يشرب، لكن ريتارو الذي انتبه إلى الأمر، قال لشونكين: «لا يستطيع سازوكيه الشرب دون موافقتك، أيتها المعلمة، لكني أرجوك أن تمنحيه حرّيته. إذا كان لا بدّ من أن يثمل، فإنني واثق من عثورك على متطوّع آخر هنا ليسعفك دليلاً».

تكلّفت شونكين الابتسام وأجابت بمراوغة: «القليل فقط إذن، لكنني أرجوكم ألاّ تسكروه».

عندها تدافع المدعوّون، الواحد تلو الآخر، إلى ملء قدح سازوكيه. لكن هذا الأخير بقي متنبهاً ونجح في إفراغ سبعة أقداح من عشرة، سكبوها له، في قدح التمضمض.

كانت فتيات الجيشا والمهرّجون يتأملون مذهولين سحر ونبل ووقار الموسيقيّة التي سمعوا عنها الكثير. لعلّ إطراءاتهم كانت ترمي إلى اكتساب رضا ريتارو، غير أن شونكين بدت حقاً، وهي في السابعة والثلاثين، أصغر عشر سنوات من سنها الحقيقية. كانت تمثل برأسها المطاطىء قليلاً ويديها الصغيرتين الرشيقتين الموضوعتين على ركبتيها بتواضع، صورة في غاية الجمال أسرت الجمع كله.

حادثة غريبة وسمت ذلك النهار. لدى خروج المدعوين للتنزه في الحديقة قاد سازوكيه شونكين تحت الأشجار المزهرة. وفي كلّ مرة كانا يقتربان من خوخة عتيقة، كان يمسك بيديها ويجعلها تجسّ الجذع. كانت شونكين تقدّر جمال الشجر والزهر بيديها.

رأى أحد المهرّجين شونكين تلامس بيديها الناعمتين الجذع الكثير العقد وقشرة شجرة الخوخ القاسية. فصرخ بصوت ثاقب: «آه إنّي أ-حسد هذه الشجرة!» وصرخ مهرّج آخر: «أنا خوخة!» وتحرّك من مكانه، قاطعاً عليها الطريق، وهو يتظاهر أنه شجرة. وانفجر الجمع بضحكة مدوية. طبعاً لم تكن الهرجة شائنة في التأكيد، لكنها أغاظت شونكين التي لم تكن معتادة على المزاح. كانت تتوقع أن تعمل كالبشر الأسوياء وتخشى فوق ذلك ما يمكن لفت الانتباه إليها.

بعد ذلك، سرعان ما غمرت العتمة الحديقة وتواصل العيد في قاعة الوليمة. قال ريتارو وهو يستدير نحو سازوكيه: «تبدو تعباً، سأهتمّ بمعلمتك. إذهب واسكب شراباً لك».

أرغم سازوكيه نفسه على الاقتناع، قائلاً في نفسه إنه يحسن فعلاً بالتهام وجبة طعام لذيذة قبل أن يجبروه على احتساء الكثير من الاقداح. لذا انسحب إلى غرفة مجاورة لتناول العشاء، لكن جيشاً عجوزاً تبعته مع قارورة، تلازمه كظله، وأرغمته على شرب جرعات ساكيه عدة. وهكذا استغرق عشاؤه وقتاً أطول مما اعتقدْ، وإذْ بدا أن لا حاجة إليه، انتظرَ في الغرفة التي كان فيها.

ما حصل لاحقاً يبقى غامضاً. فجأة، نادت شونكين على سازوكيه من قاعة الوليمة وتوجهت نحو الرواق للبحث عنه لكن ريتارو اعترض طريقها.

«إذا كنت راغبة في الدخول إلى الحمّامات، قال، فسأدلّك على الطريق».

لعله أخذ بيدها أو تجرّأ على حركة شحنتها غضباً إذ صاحت:

«كلا، أرجوك أن ترسل في طلب سازوكيه».

ما ان سمع صوتها، هرع سازوكيه نحوها وفهم على الفور ما كانت تريده، من تعبير وجهها.

بعد ذلك الحادث فتشت شونكين عن عذر ملائم لعدم استقبالها ريتارو من بعد.

لكن هذا الأخير، وقد جرح في كبريائه، لم يرض بتركها ناعمة البال. حضر لعندها في اليوم التالي كالعادة دون خجل وبمظهر مرحٍ. حينها صمّمت على معاملته بقسوة، شاكّةً في ارتضائهِ الأمرَ طويلاً، وتميزت دروسه بقساوتها.

هذا التصرف فاجأ ريتارو. كل شيء كان يسير سيراً حسناً طالما كانت تُطري البراعة التي يظنها موجودة عنده. لكن حينما تبدأ معلمته في توبيخه عند كل خطأ، تبرز عيوبه الحقيقية، ولا يعود الموقف محتملاً. ويبدو أكثر فأكثر كسلاً، حتى أن شونكين استسلمت لفورة غضب ذات يوم وضربته على وجهه بريشة عزفها وجرحته بين حاجبيه. صرخ ريتارو من ألمه. وثب بسرعة وهو يمسح الدم الذي ينسال من جبينه، مملوءاً غيظاً، ورمى شونكين بقوله «ستدفعين ثمن ذلك!» واختفى بعد ذلك كي لا يعود أبداً.

يقول البعض إن الرجل الذي شوّهها، هو ربما والد فتاةٍ ساكنةٍ في ضواحي كيتا شينشي. كانت هذه الفتاة، لتتحضّر جيداً من أجل مهنة جيشا، تتحمّل قساوة تعليم شونكين. عادت إلى منزلها ذات يوم، بعد تلقّيها ضربة ريشة على رأسها، باكيةً. اكتشفوا أن الجرح ترك ندبة تعوق نموّ الشعر، فازداد غيظ الأب أكثر من الإبنة نفسها. هرع

إلى شونكين يطلب تعويضاً.

«لقد تماديتِ بجَرحِك ابنتي، قال. وجهها هو ثروتها الوحيدة، وأنت أفسدتها. لا يمكن أن تتوقف الأمور عند هذا الحد. ماذا تنوين أن تفعلي؟».

وبينما سعى الرجال إلى تخويفها، قاومت شونكين بشجاعة. «قساوة تعليمي معروفة، جاوبت. لِمَ أرسلت إليّ ابنتك، وأنت عارف بالأمر؟».

بيد أن الرجل أصرّ: «أمر معقول لأشخاص طبيعيين أن يضربوا الآخرين، لكن ماذا حين لا نراهم! كان ممكناً أن تجرحي ابنتي في شكل أخطر. هل نسيت أنكِ عمياء؟» بدا عازماً على اللجوء إلى القوة إن لم تستسلم شونكين. توسّط سازوكيه بينهما، وأقنع الرجل، ليس دون صعوبة، بالعودة إلى منزله. لم تفه شونكين، المنتقعة والراجفة طيلة المشادة، بكلمة اعتذار واحدة.

قيل إن هذا الرجل، أراد الانتقام لابنته ولهذا السبب سيحاول لاحقاً تشويه شونكين. مهما يكن، فالمعتدي على هذه الأخيرة لو لم يرد سوى إرواء غلّه تجاهها، لاختار وسيلة أخرى: كونها عمياء ألم يكن تحوّل وجهها أقل إيلاماً لها؟. لم يشأ بلا ريب معاقبة المرأة بتعذيب فقط، بل أيضاً وبنوع أخصّ ربما تيئيس سازوكيه.

هذا يشير إلى أنه بين ريتارو ووالد الفتاة، لدينا أكثر من سبب إلى الشك في الأول.

لا نملك دليلاً على صدق شغف ريتارو بشونكين، خارج واقع أن العديد من الشبان منجذب بالجمال المتفتح للنساء الأكبر سناً. قد

تكون ميول ريتارو النتنة، نتيجة حياته الفاسدة، حملته على الاستسلام لمفاتن المرأة الضريرة. دفعه الفضول في البداية إلى الاقتراب منها. لكن بمجرد دفعه وجرحه بيدها، فممكن أن يكون فكّر في الثأر بوحشية دون أن نتمكن مع ذلك من الجزم بأنّه المذنب الحقيقي.

وضع سازوكيه المبهم بجانب شونكين ترك مجالاً لبعض الثرثرات. الذين كانوا يشتهون شونكين كانوا يحسدون سعادة سازوكيه سراً، واستقامته الثابتة كانت توحي إليهم بالمشاعر السيئة. لو كان زوجها الشرعي أو حتى عشيقها الرسمي، لما امتلك أحد مادة للنمّ. بيد أنه لم يكن رسمياً غير دليلها وخادمها. في أعين الذين تكهنوا بطبيعة علاقاتها الحقيقية، كانت تلك التمثيلية تجعلهما مضحكين وكانا واعيين للأمر. بعضهم كان يسخر علناً من سازوكيه، هل أراد أحدهم وضع تعلّق سازوكيه بشونكين على المحك؟ هل سيبدي إذا ما تشوّهت معلمته، الإخلاص إيّاه؟.

استنتاجات أخرى ممكنة أيضاً، وليس مستبعداً مثلاً، أن تكون الفعلة التي شوهّت شونكين قد أوحت بها الغيرة المهنية للتي أو للذي ارتكبها.

كانت شونكين المتكبرة والمتعجرفة، تتمتّع باعتبار نفسها الموسيقية الأولى في زمنها. الأمر كان مقبولاً عموماً، لكن أن تعلن ذلك بنفسها فقد أسخط الأمر الأساتذة الآخرين. كان لقب «كينيو» قديماً لقباً شريفاً تمنحه السلطة للأساتذة ـ الموسيقيين العميان. وكان الذين يحملونه مخوّلين ارتداء الملابس المميزة، والسفر في عربات خاصة، وكان الشعب يبدي لهم احتراماً لا يمنحه للفنانين العاديين. أحد

أندادها، مدفوعاً بالحاجة أو بالضغينة، وعارفاً مدى افتخار شونكين بموهبتها وبجمالها، قد يكون ابتكر تصميماً على تشويهها بطريقة تُبقي أمر انكشافها علناً أمراً مستحيلاً. قد تكون حتى امرأة، أثارها كبرياء شونكين، فتمنّت تحطيم جمالها.

مع كل دوافع الشك المذكورة، نفهم أن انتقاماً كهذا لم يكن ممكناً، عاجلاً أو آجلاً، تلافيه. وشونكين غير واعية الخطر، كانت تفعل كل شيء لاجتذاب الشقاء لنفسها.

* * *

كانت حوالى الثالثة فجراً، في آخر أيام آذار، وستة أسابيع كانت مضت على حفل الخوخات في تينغاجايا. تقول لنا سيرة حياة شونكين:

«استيقظ سازوكيه مذعوراً على تأوّهات شونكين، وأسرع إلى غرفتها الملاصقة للغرفة التي ينام فيها. أشعل القنديل ليرى أن المصراع مفتوح عنوةً. كان أحدهم قد دخل منه، ولاذ بالفرار دون أن يأخذ شيئاً لدى نهوض سازوكيه. لكن السارق قذف رأس شونكين بغلّاية كانت موجودة في الغرفة، قبل أن يختفي. المياه الساخنة حرقت وجنتها، وترك الحرق، للأسف ندبة في وجهها. لم تكن سوى بقعة صغيرة. ظلّت ملامحها بنعومة الزهر واللؤلؤ كما كانت في السابق. إلّا أن تلك الندبة الصغيرة جداً ملأتها خجلاً فوضعت على اثر ذلك حجاباً حريرياً يغطي وجهها في شكل دائم. وحبست نفسها في غرفتها من الصبح حتى المساء، ولم تظهر نفسها لأحد بعد ذلك. لم يعد ذووها وتلامذتها قادرين إذن على ملاحظة التحول في

وجهها، الأمر الذي خلق الشائعات والثرثرات».

تتابع السيرة:

«كانت الندبة صغيرة جداً ولا تشوّه إطلاقاً جمال شونكين. ولم يكن رفضها باظهار نفسها عائداً في الواقع إلاّ لحساسيتها المفرطة ولقلقها البالغ من التفاصيل التافهة، كسائر العميان.

«بعد بضعة أسابيع، أصيب سازوكيه بتكثّف في عدسة العين، وفقد النظر تدريجياً. وحينما لم يعد يميز تقريباً أشكال الأشياء، اقترب من شونكين بخطوة العميان المترددة وصرخ فرحاً: «سيدتي، فقدت النظر أنا أيضاً! لن أرى وجهك بعد اليوم، مهما حييت. وقعت ضرارتي في الوقت المناسب، حتماً بإرادة السماء!».

«على هذه الكلمات مكثت شونكين راكعة طويلاً، غارقة في تأمّل كئيب».

عرفنا مشاعر سازوكيه العميقة والتي يشقّ عليه إبرازها. مع ذلك يبدو لي أن صفحات السيرة تلك كتبت لإخفاء أمر آخر. بدا تطور فقدان النظر ذاك غير قابل للتصديق، ومن ناحية أخرى، لِمَ حجبت شونكين وجهها، لماذا تحاشت إظهار نفسها في المجتمع؟ لا يمكن أن يكون ذلك فقط بسبب ندبة صغيرة، لم تكن لتشوّهها. لا بد أن يكون تعرّض وجهها في الحقيقة لتشويه وحشيّ.

بحسب تيرو شيجيزاوا كان المعتدي عليها دخل المطبخ أولاً وأشعل موقد الجمر وحمّى غلاّية ماء. ثم حملها إلى الغرفة وأفرغ محتواها فوق سحنة شونكين عمداً. وسرعان ما فقدت شونكين وعيها، وامتدّ خدرها حتى الفجر. كان حروقها خطرة ولزمها شهران

لتبرأ.

شاع الضجيج الأكثر غرابة حول التحول الذي أصاب وجهها. لم يكن بلا سبب طبعاً أن يقال إن كل شعرها سقط وإنها بقيت نصف صلعاء. ضرارة سازوكيه أبعدت عنه منظر تلك التشويهات. لكن كيف يمكن أن نفسّر هذا المقطع: «كان صعباً على أقربائها وتلامذتها تحديد مساحة الأذى». في الواقع، كان مستحيلاً على شونكين ألا يراها أحد، وتحديداً العجوز تيرو، إنّما مراعاة لسازوكيه، لم تبح هذه الأخيرة أبداً بما تعرفه. حينما كان يدفعني الفضول إلى الاستفسار منها، تجيبني: «لطالما فكّر سازوكيه فيها على أنها امرأة جميلة. ولا أملك المزيد أقوله لك».

وكانت ترفض الدخول في التفاصيل.

* * *

بعد حوالى عشر سنوات على وفاة شونكين، باح سازوكيه لبعض أصدقائه الحميمين بالطريقة التي فقد نظره فيها، وهكذا انجلت الحقيقة.

حينما هوجمت شونكين، ذاك الصباح، كان سازوكيه ينام كعادته في الغرفة المجاورة. وقد أيقظته الضجة. سمع أنيناً في العتمة. لم يعد المصباح مشتعلاً. مشعراً، وثب على قدميه، وأشعل القنديل وتوجه إلى غرفة شونكين. على ضوء الشعلة المترجرجة الملتبسة الذي يعكسه ذهب الحاجز الخشبي، لم يلحظ أي فوضى، إلاّ الغلاية المقلوبة. غير مدرك سبب عدم تحرك شونكين التي سمعها تئن، فكر لأول وهلة أنها حلمت كابوساً. سألها «ما بك معلمتي؟».

كان يقترب من وسادتها لإيقاظها، حينها أطلقت صرخة.

«سازوكيه، سازوكيه! هتفت شونكين، محاولة استرداد أنفاسها ومتلويّة من الألم. لقد شُوِّهت للتو وسعت غريزياً إلى تغطية وجهها بيديها.

تأكدي، قال. لن أنظر، إني أقفل عيني، وجلب القنديل. عند هذه المبادرة، بدت مسترخية وسرعان ما فقدت الوعي.

في الهذيان الذي تلاه، كانت تكرّر: «لا تدع أحداً يرى وجهي. أكتم السر حول هذا!».

عزّاها سازوكيه بأفضل ما يستطيع: «ليس من داع لأن تقلقي. عندما يشفى الحرق، سوف تستردين جمال قسماتك».

بيد أنها كانت تعيد في خلال نقاهتها، دون توقف: «لا يعقل بعد حرق مماثل ألا يكون وجهي قد تغير. إني لا أصدّقك. لا تنظر إليّ أبداً بعد الآن يا سازوكيه!».

حينها كان الطبيب يستبدل ضمادتها، كانت تطلب إلى الجميع مغادرة غرفتها. كان سازوكيه لمح فقط وجهها المحروق ليلة الاعتداء، وسرعان ما حوّل نظره. والضمادات التي غطّته لاحقاً منعته من رؤيته، وكان الخوف الذي أظهره سازوكيه من رؤيتها يوازي في أي حال، الخوف من شونكين أن يُنظر إليها. كانت حروق شونكين تشفى ببطء. ذات يوم، وبينها كان سازوكيه وحيداً بجانبها لم تعد متمالكة نفسها وسألته بغتة «سازوكيه هل رأيت وجهي؟

ـ كلا، قال، لقد منعتني من النظر إليك، لم أخرج عن طاعتك؟

- سيبرأ الجرح قريباً، أردفت، وستنزع الضمادات ولن يأتي الطبيب بعد اليوم. إذن سواء رآها الآخرون أو لم يروها، فلن أستطيع إخفاء سحنتي عنك بعد الآن...».

بالرغم من شجاعتها الكبيرة، بدت مهيّضة الجناح، باكيةً كما ندر أن تفعل حتّذاك. بقي سازوكيه بجانبها، غارقاً في يأس صامت. تائهين في حزنهما راحا يبكيان معاً. وبعد لحظات، رجاها ألّا تعذّب نفسها، ودلّت نبرة صوته الواثقة على أنه اتّخذ لتوه قراراً. «سأعمل طريقة تعفيني من النظر إلى وجهك إلى الأبد، قال، كوني إذن في سلام».

بمضيّ بضعة أيام نهضت شونكين واستطاعت البقاء ناهضة في غرفتها. كان شفاؤها اجتاز شوطاً كبيراً يمكّن من رفع الضمادات.

هكذا توجّه سازوكيه ذات صباح في ساعة مبكرة إلى غرفة الخادمات، وتناول مرآة وإبرة وحملهما إلى غرفته. ركع على مرتبته، ومحدقاً في المرآة غرز الإبرة في عينيه. لم يكن واثقاً من أن هذا العمل كاف لجعله أعمى، لكنها بدت له الطريقة الأبسط لتحقيق نذره الدفين، والذي كان أن يفقد النظر. بدا له أن التصويب على البؤبؤ وفقأه أمر صعب، لكن القرنيّة أظهرت مقاومة شديدة. البؤبؤ سيسقط في شكل أكثر يسراً. بضربتين أو ثلاث انغرزت الإبرة في الأنسجة. عتّم نظره. لم ينزف وبدا له الألم محتملاً. كان قد أتلف الغشاء الشفاف دون شك وأحدث التكثّف في عدسة العين وأتمّ العملية نفسها مع عينه اليمنى، وهكذا فعل الأمر بعينيه الإثنتين.

بقي يدرك لفترة من الزمن شكل الأشياء، لكنه تأكّد بعد عشرة

أيام أنه بات ضريراً.

في اليوم ذاته الذي فقأ عينيه فيه دخل سازوكيه غرفة شونكين متحسساً، وقال لها منحنياً أمامها:

ـ «معلمتي، لقد أصبحت أعمى. من الآن وصاعداً مهما حييت، لن أرى وجهك بعد اليوم!

ـ صحيح يا سازوكيه؟» أجابت ببساطة، ثم مكثت تائهة في أفكارها.

قد لا يكون سازوكيه عرف أبداً لا من قبل ولا من بعد غبطة موازية لدقائق الصمت القليلة تلك.

* * *

تروي وقائع الأزمنة الغابرة أن المحارب كاجيكييو وقد أخزته مروءة الجنرال يوريتومو بالنسبة إليه، استسلم لضغائنه. وحينما لم يعد قادراً على النظر إليه وجهاً لوجه، فقأ عينيه الاثنتين. سؤال يطرح نفسه. هل كانت تأمل شونكين هذه الخطوة من سازوكيه؟ عندما توسلت إليه باكية قبل فترة ألّا ينظر إليها، هل وسوست أنها كانت تتمنى بعد مصيبة كهذه أن يصبح أعمى؟ لن نعرف أبداً، لكن هذه الكلمات البسيطة على لسانها: «صحيح يا سازوكيه؟» تشي بإحساس فرح لديها في صمتها الثنائي، استيقظت في سازوكيه الحاسة السادسة الخاصة بالعميان ـ عرف أن قلب شونكين يطفح بأنقى عرفان بالجميل. لم تعد علاقة التلميذ بمعلمته تكبحهما. تعانقا في النهاية، وكل منهما بين ذراعي الآخر، ما عادا يشعران إلّا بخفقان قلب واحد.

معظم الأضراء لا يعيش في عالم من الظلمات المطلقة. كثيرون منهم يظلون قادرين على تمييز ومضات شعشعة أو موضع قنديل. بالإضافة إلى ذلك، اكتشف سازوكيه أنه بفقده النظر اكتسب رؤية عالم داخلي: «ها هو العالم الحقيقي الذي تعيش فيه معلمتي، فكّر الآن ولجته أنا أيضاً.

لم يعد يميز لا غرفة ولا وجه شونكين، بيد أن رأس شونكين، المغلّف بالضمادات، بمقدار ما وصله مغبّش الدوائر، بدا له كرة ضوئية، شبيهة بالهيئة الت يتخذها بوذا لاستقبال أرواح المحتضرين.

«أحقاً لم تتألم يا سازوكيه؟» سألته شونكين. «كلا ولا أدنى وجع، أجاب. بالمقارنة مع مصيبتك لا وجود لمصيبتي. لا أغفر لنفسي أنني غفوت تلك الليلة، دون أن أنتبه إلى دخول لص إلى غرفتك. إنني مسؤول عن الاعتداء الذي تسبب لك في قدر كبير من الآلام. لو أعفيت نفسي، لفقدت سلام القلب. تمنّيت الهلاك الأبدي لروحي. تضرّعت ليلاً ونهاراً لروح أجدادي، راجياً إيّاهم أن يقاصصوني على إهمالي. قلت لهم: ـ إذا ما استمريت في العيش هكذا بلا همّ فبماذا تنفع نداماتي؟ ولِمَ أُصلٍّ من غير جدوى. كنت مسموعاً، بفضل السماء. أشفقت الآلهة عليّ حتماً وسمعت التماسي. واأستاذتاه وامعلمتاه، لم أعد أرى وجهك مشوَّهاً. جلّ ما أراه هو الوجه العزيز الذي حفرت كل قسمة منه في قلبي منذ ثلاثين سنة. للأسف، إن ضرارتي المفاجئة جعلتني عديم المهارة، وأخدمك سيئاً جداً في الوقت الحالي. لكنني لن ألجأ إلى أيدٍ غريبة لأخدمك.

ـ أنت على حق يا سازوكيه، أجابت شونكين، كلماتك تجعلني

سعيدة. أجهل من كـان يكرهني وسبب التصرّف هكـذا معي. إنّما سأكون صريحة معك: كنت قادرة على القبول بأن يراني الآخرون بما أنـا عليه اليـوم، لكنني ما استـطعت احتمال نـظرتك. لقـد حزرت مشاعري وأنا مقرّة بجميلك عميقاً.

ـ كلماتك تغمرني بفرح كبير ينسيني سريعاً أنني فقدت النظر... آه! يـا معلّمة، من تـراه استطاع إغـراقنا كـلانـا في عـذاب مماثـل وعاقبك بهـذا الضيق المرّ؟ إذا كـان سعى إلى النيل منّي بتشـويهك، فلم يكن لـديّ سـوى أن أصبـح ضريـراً. إنني كـذلـك الآن، ومخططات ذلك المجرم فشلت. فكرة إحباط هذا الجبان تعزّيني.

ـ سازوكيه، لا تَفُهْ بالمزيد!»

وارتمى الضريران، المعلمة وتلميذها، باكيين في أحضـان بعضهما البعض.

* * *

تبقى تيرو شيجيزاوا الشخص الوحيد الحي العارف تفصيلاً تابع حياتها. تبلغ تيرو الواحدة والسبعين هـذه السنة، وكـانت السابعـة من عصر «الميجي»، عندما بلغت الاثنتي عشرة ودخلت تلميذة عند شونكين. كان سازوكيه يعلمها الشاميزن وكـانت تقدّم خـدمات في المنزل، تارة كدليل وطوراً كمساعدة لسازوكيه.

بالرغم من كون شونكـين عمياء منـذ طفولتهـا، غير أنها لم تكن تستخدم يديها، حتى للإمساك بالعيدان، طالما أنها كانت معتادة عـلى عيش الرفاه. لذا فكر سازوكيه وهي باستخدام أحد، وحينما استقـر خيـارهما عـلى تيرو، راقتهـا أمـانتهـا. حـازت عـلى ثقتهـا سريعـاً

وخدمتهما سنوات طويلة. بعد موت شونكين، استمرّت في إعانة سازوكيه إلى حين فوزه بلقب «كنجيو» في السنة الثالثة والعشرين من عصر «الميجي»[1].

كانت شونكين، لدى قدوم تيرو إلى مدرستها، في السادسة والأربعين. تسع سنوات كانت قد مرت منذ حادثتها وبدأت تشيخ. قيل لتيرو إنه لبعض الأسباب، لم تكن معلمتها تكشف عن وجهها أبداً وحرّمت عليها رؤيته. روت لي أن شونكين كانت تركع على وسادة عريضة في شكل عادي، مرتديه الكيمونو الحريريّ المقصب وكان رأسها يبقى محجّباً «بكريبة» رزقاء سماوية، غير مظهرة سوى طرف أنفها. وكان الحجاب يلامس أهدابها مغطّياً وجنتيها وفمها.

سازوكيه كان في الواحدة والأربعين عندما فقأ عينيه. تلك الضرارة المتأخرة عقدت حياته كثيراً، إنما لا شيء كان ناقصاً في الطريقة التي يهتم فيها بشونكين، واجتذبت جهوده تعاطف كل محيطهما.

في حين أن شونكين لم تكن راضية من خدمة أحد آخر غير سازوكيه وكانت تقول غالباً إنها لا تركن إلى اعتناءات الذين يرون. «اهتم سازوكيه بي طوال كل هذه السنين، كانت تقول، هو أفضل من يفهم ذلك».

برغم ضرارته بقيت مساعدته عندما كانت ترتدي ملابسها أو تستحم. كان يدلّكها ويقودها إلى الحمّامات. في هذه الأوضاع، كانت تيرو تخدم سازوكيه بنوع أخصّ ونادراً ما سنحت لها الفرصة بلمس

---

(١) (١٨٩١ ـ المؤلف).

جسد معلمتها. فدورها الأساسي كان مشتملاً على تحضير وجبات الطعام، وعداها ما كانت تخدم شونكين إلا بواسطة سازوكيه. وهكذا، حينما كانت شونكين تستحمّ، كانت تيرو تقودها حتى باب الحمام، ثم تنسحب. وحينما يصفّق لها معلّماها بالأيدي لمناداتها، كانت تجد شونكين خارج الماء، مرتدية المئزر ومتدرّعة بحجابها. وفيما كانت تيرو تنتظر، قام سازوكيه بكل شيء. كل شيء تمّ بهذه الطريقة وكان يبدو معقداً جداً للغرباء الذين كانوا يتساءلون عن كيفية تفاهم ذينك الكائنين. لكن شونكين وسازوكيه، واعيين تعلّقهما العميق المتبادل، كانا يتجاوزان الكلمات غير المجدية حتى انهما كانا يتمتّعان بتلك التعقيدات. العالم الذي كان الرجل والمرأة الضريران يتحركان ويتحابّان فيه، مبديين سعادتهما من خلال اللمس، بفوق مخيلتنا. آنذاك لا يعود مدهشاً أن يكون سازوكيه خدم شونكين بتقى، وأن تكون هذه الأخيرة التمست عنايته وألا يكون تعبا أبداً من حياتهما الجديدة.

في خلال ساعات فراغه القليلة، كان سازوكيه يعلّم تلامذة عديدين، وتبقى شونكين حابسة نفسها في غرفتها فوق رتاج المنزل، كان أضيف إسم كينداي نوكوي بالحروف الصغيرة إلى جانب نقش «مدرسة شونكين موزويا للموسيقى». إخلاص وتفاني سازوكيه أكسباه تعاطف المحيط وعرفت المدرسة شهرة أكبر من زمن تعليم شونكين.

كانت شونكين تستمع، في أثناء إعطاء سازوكيه الدروس إلى غناء عنادلها. لكن عندما تحتاج إلى مساعدته وإن في منتصف الدرس، كانت تنده عليه فيترك على الفور للإجابة على ندائها. ما كان إذن يخلد

إلى الراحة وانتهى بالتخلي عن إعطاء الدروس خارجاً.

بدأت ثروة موزويا تنفد وكانت شونكين تنتظر آحياناً دخلها الشهري دون جدوى. لولا هذا الواقع، لما اختار سازوكيه أبداً تعليم الموسيقى، إذ كان يتضجّر وقت الدروس، ويتغيب عن شريكته.

لماذا لم يتزوجها؟ هل بقيت كبرياء شونكين عائقاً أمام اتحادهما؟ إليكم ما عرفته تيرو حول هذا الموضوع من فم سازوكيه نفسه.

كانت شونكين تظهر آنذاك لين عريكة غير عادي، وكان سازوكيه من جهته يبدي حزناً من رؤيتها مذلولة. ما كان يسعه أن يتصورها تعسة أو مثيرة للشفقة. التعاسة أحدثت تبدّلاً في شخصيتها، ولم تعد شونكين تلك المرأة المتغطرسة التي عرفها. حرمت من كبريائها، وتضاءل وهج جمالها، وإن كانا لم يتزوجا أبداً فيجب أن نعزو ذلك إلى سازوكيه أكثر منه إلى شونكين.

هو الذي استمر رافضاً اعتبار نفسه مساوياً لمعلمته. ظلّ يعاملها كأستاذته، وأكثر تواضعاً من قبل، جاهداً في جعلها تنسى مصيبتها علّها تسترجع ثقة الماضي.

قانعاً بالراتب الزهيد ذاته، والملابس إياها وبغذاء الخادم السيء، كرّس لشونكين كل المال الذي كان يجنيه. وليحدّ من النفقات، قلّص عدد الخدّام، واقتصد في جوانب أخرى، بيد أنه حرص على عدم تقرير شيء يضرّ برفاهية شونكين، بالرغم من أن همومه وعذاباته تضاعفت بعد ضرارته، وبحسب تيرو، فقد اقترح عليه بعض التلامذة الذين أحزنتهم رؤيته رثّ الملابس، أن يعتني بمظهره قليلاً، لكنه تجاهل تلميحاتهم. طلب إليهم مناداته بالسيد سازوكيه وأبداً معلّم، الأمر

الذي ضايقهم فتحاشوا قدر المستطاع استفهامه. أمّا تيرو التي كانت مرغمة على التكلم مع كليهما، فكانت تنادي شونكين «أستاذة» وسازوكيه «سازوكيه ـ سان»[1] ولما اشتهر لاحقاً بكنجيو وناداه الجميع «معلم» أو «السيد الأستاذ كينداي» بقي مفضّلاً «سازوكيه ـ سان» للعجوز تيرو ولم يسمح لها أبداً باستعمال لقب شرفيّ.

قال لها يوماً «يظنّ الناس أن فقدان النظر أمر محزن. لكن منذ ضرارتي ليس هذا ما أشعر به، بالنسبة إليّ، أمسى العالم نعيماً. خيِّل إليّ مكوثاً مع معلمتي في زهرة لوتس. الانسان الذي يصيبه العمى يكتسب القدرة على رؤية أشياء كانت خافيه عنه من قبل. لم أفقه كلياً جمال معلمتي الحقيقي. إلاّ حينما صرت نفسي أنا ضريراً أتساءل لِمَ فاتتني هذه المعرفة عندما كنت أملك نظري؟ من بين الكثير من الأمور الأخرى، لم أكن منتبهاً إلى رقّة عزفها على الشاميزن. صحيح أنني كنت أقول بامتلاكها عبقرية الموسيقى، إنما فقط لاحقاً أيقنت موهبتها فعلاً. إذا ما قارنتها بامكاناتي الضعيفة. فإنني أخجل بالهوّة التي تفرّقنا. كذلك لو منحني الله استعادة نظري لرفضت. هذا لأننا كنا ضريرين، ولأنّ معلّمتي وأنا نعمنا بالسعادة التي ما كان لأشخاص عاديين القدرة على تصورها.

أتساءل إلى أي مدى تتلاءم وجهة النظر هذه مع الحقيقة. أليس محتملاً أن تكون مأساة شونكين تركت أثراً في مهنتها ومنحت عزفها عمقاً وقوة جديدين؟ مغمورة بالاطراء والدلال، كانت تطلب الكثير من الآخرين. لم يفكر أحد في لجم كبريائها. لم يزرها القلق والذلّ قط. لكن السماء أظهرت ذلك أخيراً. وخفّضت غرورها إلى نقطة

---

(١) المعادل لـ «سيّد سازوكيه» ـ المترجم.

العدم. المأساة التي حطمت جمالها كانت بلا ريب من بعض النواحي، نعمة لدنية أوحت إليها في الموسيقى وفي الحبّ بغبطات لم تحلم بها حتّى.

تروي تيرو أنها كانت ترى شونكين تلعب الشاميزن، لتمرير الوقت. وبجانبها، كان سازوكيه يصغي. منحني الرأس، تائهاً في نشوة. حينها، كان التلامذة مبهورين بتلك النغمات البارعة، يتهامسون بأن ألحاناً مماثلة لا يمكن أن تخرج من آلة أرضية.

في تلك الفترة كانت شونكين تؤلف أيضاً ألحاناً لآلة الشاميزن. كانت تعمل سراً، ناقرةً الأوتار بأناملها. نعرف حتى اليوم إثنين من ألحانها: «عنادل ربيعية» و«نديفات الثلج». أتيح لي سماعهما منذ أيام. إنهما فريدان جداً ويدلاّن على موهبة مؤلّفتهما.

* * *

في أوّل حزيران من السنة التاسعة عشرة للميجي[1]، وقعت شونكين طريحة الفراش.

«كانت خرجت قبل بضعة أيام إلى الحديقة برفقة سازوكيه، وفتحت قفص قبّراتها المفضلة ومنحتها الطيران. لمحتهما تيرو، المعلمة وتلميذها الضريران، واقفين شابكين اليدين، رافعين الرأس لسماع التغريد السماوي. ارتفع العصفور أكثر فأكثر نحو السحاب، لكنه لم ينزل إلى الأرض. ترصّداه طويلاً، حوالى الساعة، لكن القبّرة لم تعد.

---

(١) ١٨٨٧ ـ المؤلّف.

كان إثر ذلك أن بدأت حال شونكين تسوءُ شيئاً فشيئاً. وسرعان ما أصيبت بمرض الهزال. في الخريف، تفاقم وضعها وانطفأت بأزمة قلبية في ١٤ تشرين الأول.

يوم وفاتها، كانت تملك، علاوة على قبّراتها، «الطِبَال السماوي الثالث». سكب سازوكيه دموعاً حينما سمع ذلك العندليب يغني. وفي كل مرّة كان يسمح له عمله بهنيهة حرية، كان يشعل البخور لذكرى شونكين ويلعب لحن «العنادل الربيعية» تارة على آلة الكوتو وطوراً على آلة الشاميزن. بِمَ كان يفكر آنذاك؟.

طالما بقيت لنا ذاكرة، طالما بقينا بجانب موتانا. بالنسبة إلى سازوكيه، الذي كان منذ مدّة بعيدة توقف عن النظر إلى المرأة التي أحبها، فإنه صعب دون شك تحديد اللفظة الدقيقة في الزمن، التي فرقته عنها بالموت.

* * *

عدا الطفل الذي أنف ذكره، وهبته شونكين صبيّين وابنة، وهذه الأخيرة ماتت بعد ولادتها بقليل. تبنى الصبيّين مزارعون من كاواتشي. لكن بعد غياب شونكين، بدا سازوكيه كما لو أنه فقد كل حنان تجاههما ولم يفعل شيئاً لإقناعهما بالعودة إلى جانبه. ومن جهتهما، لم يبد الولدان أي رغبة في مساكنة والدهما الأعمى. وهكذا عشيّ حياته بلا زوجة وبلا وريث، مات سازوكيه في حضور تلامذته بسن متقدمة بلغت ثلاثاً وثمانين في ١٤ تشرين الأول من السنة الأربعين للميجي(٢) ذكرى وفاة شونكين إشو زنجوني.

---

(٢) ١٩٠٨ - المؤلف.

في الإحدى والعشرين سنة التي عاشها في الوحدة، ينبغي أن يكون قد صنع لنفسه صورة مثالية لشونكين، دون كبير علاقة مع المرأة التي كانتها في الحقيقة.

غازان، كاهن معبد تينـريو، وقد علم كيف أعمى سازوكيه نفسه بفقوء العينين، يقال إنه امتدح الشعور الذي دفعه إلى ذلك الفعل. ويشرح أن سازوكيه عرف الاقتراب من الروحانية الحقيقية، بتحويل حقـارة إلى عنصر جمال، ووحـدهـا نفس نبيلة في استـطاعتهـا تفهّم تلك البادرة.

ـ أنتم الذين قرأتم هذه القصة، هل توافقوه الرأي؟.

أشيكاري

قدح بين القصبات

على شواطىء نانيوا المقفرة
تنمو القصبات حزينةً
وأسقم منك، أيها المنعزل،
قرب ذلك البحر المهجور.

حينما كنت لا أزال أقطن أوكاموتا، هاكم ما جرى لي في نهار أيلوليّ جميل. يومذاك، كان الطقس جميلاً، ورغبت حوالى الثالثة من بعد الظهر في التنزه في أرباضٍ المنطقة. كنت أعرف تقريباً سائر الأماكن القريبة، وكان الوقت متأخراً لجولة طويلة. تذكّرت معبد ميناز، الذي طالما وددت زيارته دون أن تسنح لي الفرصة.

في الوقائع الشهيرة الـمُغْفَلة للقرن الرابع عشر، «المازوكاغامي، مرآة المرايا» ـ مقطع بعنوان «تحت العلّيق» يصف ميناز كالآتي:

«أعطى الإمبراطور غوتوبا أمراً بترميم قَصْرَيْ توبا وشيراكاوا ليقيم فيهما حسب رغبته. كما بنى منزلاً فخماً رائعاً في ميناز، مملوءاً بالمفاتن، حيث مع ازهرار الربيع وسقوط أوراق الخريف يستطيع إبهاج قلبه بملاذّ هذا العالم. وكان مشرفاً على حافة النهر. كما أن أناقة الإنشاءات

وسحر المكان كانا يفعمان الزوّار إعجاباً. كان جلالته في حقبة «جن كيو» (١٢٠٤) يمضي فيه الوقت مؤلِّفاً القصائد:

كان الجبل يختفي
في ضبابات نهر ميناز
وهذا المساء، لم نعد نفكّر
إلاّ بالخريف.

ممرّات مسقوفة بالقشّ تصل الأجنحة بالجسور المقوّسة فوق البُرَكْ. تزيّنها رموز الخلود. وكان يهبط شلاّل من الهضبة تجري مياهه حول الصخور وعلى البلاطات البديعة الترتيب. وكانت صنوبرات الحديقة الفتيّة تبسط أغصانها لتشبكّها بورقات الجبل، وبالأشجار التي غطّاها الزمن بالطحالب. وبعد أن تمّ غرس النباتات الأخيرة كما كان يشتهي، دعا الإمبراطور عدداً من الضيوف إلى ترفيهات متنوعة في تلك الحدائق. وقد ألَّف الجليس الشاب تايكا، وكان يومذاك مستشار القصر، الأبيات التالية:

فلترافق السعادة ملكنا
لألف جيل
إلى حين تنكسر على القمم
هذه الصنوبرات اليافعات.
فلينساب مجد ملكه
إلى الأبد
كخلود انسياب مياه حديقته
إلى البحر.

مذذاك، سكن الإمبراطور قصر ميناز معظم الوقت. عرف فيه أياماً سعيدة، راضياً على الحياة، عازفاً على آلة الكوتو أو نافخاً في مزماره، أيام الزهر أو القيقبات».

توجّهت إذن لرؤية موقع هذا القصر القديم الذي تصوّرت ملامحه وأنا أقرأ «مرآة المرايا» للمرّة اولألى. تلك الرؤية لازمتني، وكنت مولعاً بقصيدة الإمبراطور غوتوبا التي تبدأ هكذا: كان الجبل يختفي في ضبابات النهر... أو رثاءاته الأخرى: «على خليج أكاشي الهادىء»، و«اليوم أرسو على تلك الجزيرة منفيًّا...».

لكن ما أثّر فيّ بنوع خاص، هو التذكّر الاستحضاري لنهر ميناز. كل مرّة أردّد فيها هذه القصيدة، أعتقد نفسي واقفاً على ضفّة صخريّة، متأملاً مياه النهر من علٍ، جريانها مضيء تحتي ويعكس مشاعر الكآبة والحنان العزيزة لديّ.

عندما كنت لا أزال جاهلاً موقع الأماكن في كوانزاي، لم أبحث عن مكان القصرِ المحدّد. كنت أستطيع تصوّر موقعه في ضواحي كيوتو. استدلّيت أخيراً إلى المكان المذكور على مسافة فرسخ من محطّة ياماشيرو، قرب حدود مناطق ياماشيرو وسيتسو، فوق مجرى نهر يودو. نبلغ يامازاكي سريعاً في القطار. ومن السهل أيضاً الذهاب في الترام حتى أوزاكا، ثم تبديل الخطّ. في تلك الليلة، كانوا يحتفلون بعيد البدر. كنت معوِّلاً إذن على متعة مشاهدة القمر من ضفاف نهر يودو وأنا عائد إلى منزلي. وعارفاً أن عائلتي لا تهتم بهذه الرحلة، ذهبت وحيداً، دون البوح بوجهتي.

تقع يامازاكي تحت مقاطعة أوتوكوني في منطقة ياماشيرو، والموقع

التاريخي لميناز تحت مقاطعة يشيها، في منطقة سيتسو. غادرت أوزاكا عبر الخط الجديد ونزلت إلى أويامازاكي في ترام. وعائداً على القدمين عبرت للمرة الثانية الحدود بين المنطقتين. كنت جلت ضواحي يامازاكي في السابق لكنها كانت المرّة الأولى التي أتبع فيها الطريق العريضة نحو الغرب.

لم أكن مشيت طويلاً حين وصلت إلى تفرّع حيث تشير لافتةٌ عتّقها الزمن، إلى أنّ طريق اليمين تفضي إلى ثلاث مدن هي أكوتاغاوا وإيكيدا وأتامي. في الأراضي المحيطة بتلك المدن، يذكر «تاريخ الجنـرال نوبوناغا» إنّ محاربي أراكي نوراشيغيه وإيكيدا كاتسونيوزاي المميزين حققا مآثرهما في الحروب الأهلية.

كان ينبغي أن يكون التفرّع إلى يميني الطريق القديمة الرئيسة والدرب الجديدة التي تحاذي النهر. كان يسلكها بنوع خاص المسافرون بعد مغادرتهم المراكب. وهي تُرغم على القيام بعدّة تحويلات لتلافي جُوَيْنات النهر وطغيان مدّ وجزر السواقي. من نوافذ القطار الكهربائي الذي أقلّني إلى هناك، نلمح آثار معبر إيغوشي.

اليوم، تشمل أوزاكا ـ الكبيرة إيغوشي، وضُمّت يامازاكي إلى كيوتو منذ توسيع المدينة. لكن الريف بين أوزاكا وكيوتو لا ينعم بمناخ جميل مماثل للمناطق الشائعة الواقعة بين كوزاكا وكوبيه. لا نـرى تحسّناً كبيراً في تطوّر الأولى على الرغم من التكتّلات الريفية. جمال تلك الأرياف النائية سوف يبقى إذن محميّاً لزمن إضافيّ بعد.

«تاريخ الرونين السبعة والأربعين» يذكر أن تلك الطريق كان يتردّد عليها في الماضي قطّاع الطرق والخنازير البريّة. اليوم، بالنسبة إلى

أنظارنا المعتادة على الطابع الغربي لمدن وبلدات الخطّ الكهربائي، تبدو المزارع ذات سقوف القشّ غريبة ومن حقبة أخرى.

«وقد افترى عليه القدر وآلمه بمرارة، قطع رحلته نحو المنفى لتلقّي إكليل الرأس في صومعة في يامازاكي».

هذا المقطع من «المرآة الكبيرة» يشرح كيف أن سوغاواوا ميشيزانيه، كبير الوزراء، خادم الإمبراطور المخلص، وقد حُكم عليه بالنفي، اعتزل العالم في تلك الأماكن وأصبح كاهناً بوذيّاً. بحسب هذه الوقائع، ألّف حينها قصيدة:

السقف الذي يحميك يختفي عن ناظريّ
طالما أنني أبتعد خطوة خطوة.

تلك الحكاية تحدّد جيداً موقع يامازاكي، استراحة المسافرين منذ الأزمنة الغابرة. كانت دون شك محطّة بريديّة، حينما كانت كيوتو العاصمة في حقبة «هيان». تابعت طريقي، مستسلماً لأحلام اليقظة تلك، وناظراً في مروري أكواخ القشّ التي تخبّىء تحت إفريزاتها المعتمة آثاراً من الماضي.

بعد زيارتي القصر، تبعت نهراً افترضت أن يكون الميناز. عبرت جسراً، ومشيت لبعض الوقت، ثم أخذت إلى يساري طريقاً معترضة. وسرعان ما وطئت تقريباً الأراضي الجليلة حيث كان منتصباً في الماضي قصر ميناز العتيق. وقد شيّدت فيه الحكومة حديثاً معبداً على شرف الأباطرة الثلاثة غوتوبا وتسوشيميكادو وجونتوكو، والثلاثة عرفوا التعاسة نفسها في خلال الحروب ابتداءً من القرن الثالث عشر. البلاد غنيّة بالهياكل والمصليّات، إنّما لا شيء مميزاً في

هذا المعبد. مع ذلك جعلني أستعيد بعض حكايات «المرآة الكبيرة» التي تحمل سمة الأعوام الأولى من عصر الكاماكورا، بينما هنا كانت تقام على مدار السنة حفلات البلاط، وعند هذه الذكرى حرّك المنظر والأشجار والحجارة مشاعري عميقاً.

جلست على حافّة الطريق، وبعد أن دخّنت غليوناً، عدت للتطواف. كانت الأمكنة التي أتنزّه فيها تكوّن عزلة هادئة وسريّة. هناك كان يقع في الماضي قصر الإمبراطور غوتوبا، حيث كانت الجنائن منبسطة دون شك حتى ضفاف نهر ميناز الذي عبرته لتوّي.

تخيّلت الإمبراطور وهو يتأمّل المنظر الطبيعي من برج صغير مشيّد على ضفّة النهر، أو وهو يتنزّه في الحدائق مردداً الأبيات التي أوحاها له ذلك الديكور:

في ضبابات نهر ميناز...
كان الجبل يختفي

«ذات يوم صيفيّ، كان الإمبراطور يشرب الماء البارد ويتناول وجبة طعام برفقة أصحاب المقامات في منزله، في حديقة الدراقن، ولدى تقديم الساكيه، صرخ فجأة:

«- لا بدّ أن تكون مورازاكي امرأة جذّابة جداً! إنها تروي في «رواية جنجي» أن أحدهم أهدى الإمبراطور أسماكاً من نهر قريب أو مصطادة من سيل بين الصخور الجبلية. مؤسف أن تكون زالت عادة التفنّنات المطبخية هذه!».

«لدى سماع هذه الكلمات نزل أحد حجّاب الخدمة، واسمه هاتا، إلى حافّة البركة حيث التقط بضع ورقات من الخيزران القصير الذي

كان ينمو هناك. وضعها على طبق، وتناول أرزّاً طازجاً مبلولاً، ونثره فوق الورقات وقدّم الكلّ للحاكم.

«ـ تهانيّ، قال الإمبراطور. أأردتَ إظهار الخيزرانات تحت البَرَد؟ الفكرة فريدة.

رفع الحاكم جلبابه ووهبه للحاجب وعبّر عن رضاه بإفراغ عدّة كؤوس».

وفق ذلك المقطع من «المرآة الكبيرة»، أفترض أن بركة حديقة الدراقن كان يرفدها نهر يودو، الذي ينساب على نصف فرسخ من الجنوب، خلف المعبد. لم أكن أرى النهر بل أَجَمَة جبل أوتوكو، المكرّس لإله الحرب هاشيمان، والذي كان مرتفعاً فوق رأسي. إلى الغرب كانت تنبسط منحدرات جبل إيواشيميزو، غارقة في الظلّ. إلى الشمال، قبالتي، كان جسم جبل تينّو المرتفع ينتصب في السماء.

سهل يا ماشيرو، إلى الشرق، مع كيوتو في وسطه، والسهل الذي يضمّ مقاطعتي سيتسو وكاواشي، مع أوزاكا، يلتقيان هنا بلسان ضيِّق من الأرض يمرّ فيه نهر يودو. ومع أنّ المدينتين موصولتان بالنهر، إلاّ أنّ مناخهما مختلف جداً، بفضل مصادفات البقعة. كان خطّ التماس يقع تقريباً حيثما كنت. ويؤكّد سكان أوزاكا أنّها إذا ما أمطرت في كيوتو، غربيّ يامازاكي، فإن السماء تبقى غالباً صافية. لدى مرورنا، شتاءً، في القطار نحو يامازاكي، نشعر بهبوط الحرارة المفاجىء.

غادرت حرم المعبد، وعدت متّبعاً الدرب الضيّق البعيد من الطريق الرئيس، إلى حافّة نهر ميناز وتسلّقت على ردم، للتمتّع بالمنظر الطبيعي. لا أظنّ أن مرأى الجبال ، فوق النهر، أو مجرى هذا

الأخير، قد تبدّلا منذ سبعة قرون. الصورة التي كنت كوّنتها وأنا أقرأ قصائد غوتوبا، والبانوراما التي كانت تحت ناظريّ، قليلتا الاختلاف. كان الواقع كما تخيّلته: لا حجم عظيماً، لا هوّة صخريّة وقاسية، إنّما مرتفعات لطيفة، وساقية هادئة، وطبيعة ساكنة ومشعّة في ضباب العشيّ، ديكور صافٍ نظيف يُلهم رسّاماً من الأزمنة الغابرة.

لا يكمن الجمال إلاّ في نظرة الرائي، ولما كان لهذا المنظر الطبيعي معنى في نظر البعض. بالنسبة إليّ، أتفه الروابي، النهر الأكثر عاديّة، كانا يملكان جاذبية قويّة ويحثّانني على تأمّل آسر بحيث أمكنني البقاء هنا لساعات طويلة.

العتمة التي هبطت سحبتني مع ذلك من حلم يقظتي. نظرت ساعة يدي، كانت أمست السادسة. في أثناء نزهتي، بعد الظهر، كنت شعرت بالحرّ، لكن ما أن غابت الشمس، حتى بدأت أرتعش من هذا الخريف البارد. قرّرت تناول العشاء في مكان ما بانتظار طلوع القمر، وعدت سيراً على القدمين على امتداد الضفّة حتى بلغت الطريق العريضة. كنت عارفاً أنه لا جدوى من البحث عن مطعم جيّد في ضيعة صغيرة على حافّة النهر. متوقفاً عند مطعم حقير، احتسيت قليلاً من الساكيه والتهمت قصعتين من الفطائر المعجّنة. قلت لصاحب المكان، وأنا أهمّ بالمغادرة، إنني راغب في ركوب قارب نهريّ لرؤية القمر.

ـ يمكن تدبير ذلك، أجاب. ثمة رحلة نهريّة بين هذه البلدة وجاشيموتو، على الضفّة الأخرى. النهر عريض جداً، وفي الوسط، على دكّة رمليّة كبيرة، يبدّل العابرون الزورق. ينبغي عليك التوجّه حتى دكّة الرمل، والعودة منها لاحقاً، في مركب آخر، سترى في

الأثناء النهر تحت ضوء القمر. المراكب تُقبل وتُدبر حتى حوالى الحادية عشرة.

بوصولي إلى رصيف الركوب، لمحت في البعد دكّة الرمل التي وصفها لي الرجل. قسم منها فقط كان مرئيّاً، لكن دوائرها تمسي مغبّشة في الأعلى. تساءلت ما إذا كانت حقاً جزيرة أو بحيرة أرضيّة، على ملتقى النهرين، حيث يلتقي كاتسورا نهر يودو.

جلست على الحصى في انتظار الزورق، كان يغادر هاشيموتو التي تتلألأ أنوارها البعيدة فوق المياه المعتمة. لدى بلوغه الرمال، نزل العابرون منه واستقلّوا مركباً آخر للنصف الثاني من الرحلة. وبعد قليل، رسا وكان دوري في الركوب.

كانت مضت سنوات لم آخذ فيها مركباً. قياساً إلى تلك التي اختبرتها في طفولتي، بدا لي هذا المركب مريحاً، حتى وإن كان من بقايا ماضٍ مُبْطَل.

لدى اقترابه من دكّة الرمل، ظهر عليّ جبل أوتوكو كما يُبرزه نقش قديم كنت أملكه، مكلّلاً بهالة البدر. وقد تجلّت منحدرات الجبل بجزّة أشجارها الكثيفة كالمخملات، وبرزت كتلة العتم جليّة في السماء الليلية، التي كانت لا تزال ملوّنة طفيفاً بشعاع الغروب.

حثّني ربّان الزورق على تغيير المركب، لكنني أجبته بأنني أنوي قبل ذلك التنزّه قليلاً. تمشّيت نحو رأس دكّة الرمل، مفرّجاً القصبات من طريقي، وجلست على العشب، على ضفّة الماء.

شيئاً فشيئاً انساب ضوء أزرق فوق سطح النهر، بدا لي أعرض من الغسق. ورحت أتلو بضع قصائد صينية كنت نسيتها تقريباً. أبيات

كاجيكي تذكر نهراً كان مزدحماً بالزوارق والمراكب. اليوم، لم يعد باقياً سوى هذه البحيرة الحاملة بضعة عابرين.

صعد الساكيه الذي شربته قليلاً إلى رأسي. أنشدت «أغنية بيوا» بصوت مرتفع:

إلى نهر جونيو، حيث الكواكب مشعّة فوق رؤوسنا،
رافقت زائري،
إنني الآن بين القيقبات والليسبيديزات المزهرة،
الوحيد في تذوّق حزن الخريف...

فجأة، طلع صوت خلفي، بين القصبات. لدى استدارتي، ألفيتُ رجلاً مقرفصاً ورائي، كظلّي. مفاجأً، حدّقت مغتاظاً لكنه لم يبدِ أيّ اضطراب ووبّخني بمودّة.

«يا للبدر الرائع، أليس كذلك؟ قال لي. إنني جالس هنا منذ بعض الوقت، لكنني بقيت ساكتاً كي لا أزعجك. سمعتك تُنشد «أغنية بيوا» وهذا منحني الرغبة في إنشادك شيئاً ما، أنا أيضاً. لا أريد الإلحاح عليك، إنّما هل ترضى بسماعي؟».

في طوكيو، كان اقتراب شخص مجهول منك أمراً غير طبيعي كلياً، لكنني مذ سكنت كوانزاي تآلفت شيئاً فشيئاً مع تصرّفات سكّانها الحرّة. أنا بذاتي، ودون أن أعي ذلك، اعتنقت الكثير من عاداتهم. لذا أجبت:

«إنك ودود جداً. سأسمعك بكل سرور».

وقد سمع هذه الكلمات، نهض الرجل وفرّق القصبات الضاجّة،

وأتى للجلوس بجانبي.

حلّ الشرائط المربوطة بعصاه المقدودة حديثاً وقدّم لي مطرة بيد، وبالثانية قدحاً مبرنقاً: «أتقبل قدحاً من الساكيه قبل سماع أغنيتي المتواضعة، التي يُخشى أن تخيّب أملك وتفسد متعتك، قال. هواء النهر قارس، لا تخشى أن تشرب أكثر من العادة بقليل».

دون أن ينتظر جوابي، قدّم لي قدحاً. وسمعت البقبقة مجدداً. شكرته وشربت. الساكيه خاصّة كان ممتازاً وأحسست نفسي منتعشاً. وألحّ الرجل بحيث احتسيت ثلاثة أقداح منه دون توقّف. وبينما كنت أتمزّز الثالث، بدأ ينشد ببطء وبصوت واثق أغنية «كوغو» عن السيّدة الهاربة.

كان يتنفّس بصعوبة، على ما بدا لي، ربّما لأنّه كان ثملاً قليلاً. كان صوته يفتقد إلى الجهوريّة والقوة، إنّما كان يظهر مراساً جيداً بأنغامه المستوية. كانت سهولة تماسكه تشي بسنوات طويلة من الدراسات الموسيقية. أحببت، وأنا أسمعه، ثقته وجرأته أمام غريب وكنت أقدّر صفاء الفنّان الناسي كل شيء، عدا فنّه. هذا الرجل كان البرهان الحيّ على أن تثقيف موهبة فنّية، حتى دون البروع فيها، ليس مضيعة للوقت إذ تحظى من خلالها بصفاء روحي كهذا.

«آه! أشعر نفسي أفضل، زفر. شكراً لكونك استمعت إليّ». رطّب شفتيه الجافتين وقدّم لي قدحاً آخر.

كانت قَلَنسوة الصيد التي يضعها تستر عينيه عن نظري وتمنعني من تقدير عمره الحقيقي، الذي لا بدّ أن يكون على نحو ظاهري بعمري. كان رفيعاً وقصير القامة، يرتدي ملابس عادية تحت معطف

سفر. قلت له، وقد لاحظت استخدامه لهجة أوزاكا: «أعذرني على سؤالي: ألست من أوزاكا؟ ـ لكن بلى. إني أدير محلّ أثريّات في جنوب المدينة. خرجت هذا المساء لتأمّل القمر. إني آتي إلى هنا كل سنة مستقلاً القطار الكهربائي، إنّما هذه السنة، وبالرغم من الطريق الأكثر طولاً، أخذت الخطّ الحديث وهكذا اضطررت إلى ركوب هذا الزورق».

بينما كان يتكلّم، أخرج غليوناً من قِرابه وحشاه بالتبغ. كان يقطع حديثه ليشعله ثم يتابع.

«إني معتاد الذهاب كل سنة إلى بحيرة أوغورا، لكنني سعيد جداً بأنني مررت من هنا وتمكّنت من رؤية القمر عن دكّة الرمل هذه. لدى رؤيتك جالساً هنا، أدركت إلى أي حدّ كان المكان ساحراً. إنني مقرّ جداً بجميلك».

أفرغ غليونه، ملأه وأشعله مجدّداً،

«إن كنت شاعراً، أرجوك، دعني أسمع قصائدك.

ـ أوه! إنها بلا قيمة، قلت. أخجل من إزعاجك...».

لكنّه أصرّ، ثم وبعد لحظة، عاود الغناء بنفسه:

«القمر يضيء الموج
الهواء ينفخ في الصنوبرات.
تلك الأمكنة معدّة
لليلة طويلة من المتعات...».

«أأنت من أوزاكا؟ سألته. أفترض أنك تعرف المنطقة وتاريخها

جيداً. أتصوّر أنه، بالقرب من دكّة الرمل هذه، كانت مومسات إيغوشي يأتين قديماً ليمخرن الماء بقوارب العيد. لعلّك تستطيع أن تحدثني عن ذلك، في ليلة قمرية كهذه، تلك الصور تلازمني، وذكرى الأيام الغابرة...

- في لحظات الإحساس العميق، أجاب بوقار، تتشابه أفكار الرجال. أنا أيضاً، كنت أفكّر في هذه الأمور.

- لم تعد شاباً، قلت وأنا أتطلّع إليه في انتباه. لدينا كلانا طريقة النظر الخاصة بسنّنا. في حين أنه بالنسبة إليّ، فبقدر ما أشيخ، بقدر ما أستشعر في حماسة حنين الخريف وشجاه. في عمرنا فقط نقدّر المعنى الحقيقي للقصائد القديمة. حينما كنت شاباً، ما من فصل كان يبهجني أكثر من الربيع. اليوم، وقد أتت الشيخوخة، أنتظر الخريف بفرح عذب. العمر يحمل استعفاءً، نواجهه بهدوء حتى نهايته القريبة والرغبة الوحيدة الباقية لي هي الرغبة في السلام وفي السكينة. ألست من رأيي؟ حينما ترتدي الطبيعة تلك الهيئة الكئيبة، تعزّينا أكثر من المناظر المشمسة والبهيّة. ألا يلائم ذلك حالنا النفسية أكثر؟ قد يرى شاب في هذا الحنين إلى الماضي نزوة خيال عندنا، لكنه بالنسبة إلينا الطريقة الوحيدة لقبول الحاضر، ألا تعتقد ذلك؟

- هذا صحيح جداً، أردف. ما تقوله ينطبق على سائر البشر الذين يهرمون، لكنني أملك حوافز خاصة لاستعادة الماضي... لـمّا كنت شاباً، كان والدي يصطحبني كل سنة، ليلة البدر في أيلول، في نزهة من بضعة كيلومترات، وأذكر بوجه الذي كان يترجم مشاعره الصادقة بصدق ما تعبّر عنه. كان يحدّثني عن حزن الخريف، ويقول لي إنني لن أستطيع تذوّق طعمه، إنّما سوف يأتي يوم أفهمه فيه وأحبّه.

أإلى هذا الحدّ كان والدك مولعاً بالبدر؟ لِمَ مرافقة ولد في تلك النزهات الليلية؟».

فكّر وتابع: «كنت في السابعة أو الثامنة من عمري عندما اصطحبني للمرة الأولى. كنت إذن صغيراً جداً على فهم أي شيء. في تلك المرحلة، كانت توفيت أمّي قبل ثلاث سنوات. أفترض أنه لم يكن في وسع والدي الخروج دون اصطحابي معه. زمن ذاك، لم تكن القطارات الكهربائية موجودة. ذهبنا ذات يوم لركوب مجرى هذا النهر. والمركب الذي أبحر فينا إلى هاكينيا تركنا في فوشيمي، التي كنت أجهل إسمها. كنت أضبط لساني ولا أترك والدي قيد أنملة. بعد أن اجتزنا منحدراً بلغنا البحيرة. أعرف اليوم أن ذلك السدّ هو سدّ أوغورا وأن اسم البحيرة يرجع إليه. هذا يشكّل حوالى ثمانية كيلومترات انطلاقاً من فوشيمي».

قاطعته: «ما الذي كان يدفعك لزيارة هذا المكان؟ أتأتي إلى هنا دون هدف آخر سوى تأمّل انعكاس القمر فوق البحيرة؟

ـ دعني أُكمل... كان أبي يتوقّف، من حين إلى آخر، على ضفّة البحيرة ويقول لي: «يا بنيّ، يا له من مشهد رائع!» وعلى رغم حداثة سنّي كان المنظر الطبيعي يبهجني وتبعت والدي. اقتربنا من مسكن، بدا تبعاً لظاهره فيللا رجل ثريّ. نغمات الكوتو، والشاميزن والكمان الأوسط كانت تخرج منه وتتناهى إلى مسامعنا عبر الحديقة المشجّرة. توقّف والدي أمام المدخل الفخم ليرهف السمع لحظة، ثم راح وسط دهشتي يحاذي السور الذي يحيط بالملكيّة. عندما ولجنا الحديقة الداخلية، غدت الموسيقى أكثر وضوحاً، ممزوجة بضجيج الأصوات. تجمّد والدي في مكانه. كان لديّ تحت ناظريّ حديقة، وبركة، وتلّة،

من العشب المجزوز المسبود. على الشرفة العالية المبنيّة كما في ذلك الزمان فوق البركة، كان العديد من الأشخاص، رجال ونساء، قاعدين إلى مأدبة. وقرب الدَرْبَزين وُضعت التقدمات وقارورات الساكيه المقدس والشموع، وضمّات من القصب وزهر الليسبيديز تشير إلى أنهم كانوا يحتفلون بقمر الخامس من أيلول. كانت سيّدة تلعب على الكوتو وتحتلّ موقع الشرف. آلة الشاميزن كانت بيْن يدي شابّة تضع على رأسها قبعة قوقعيّة، في حين أن موسيقياً أعمى، يرتدي لباس المعلّمين- الموسيقيين من جماعته، كان يحمل قوس الكمان الأوسط. كنّا بعيدَيْن جداً لنتمكّن من تفصيل أولئك الأشخاص. إزاءنا تماماً، أمام حاجز مغلّف بالذهب، شابة أخرى ترقص، على شعرها الأملس قبعة أيضاً. كنت أستطيع تمييز حركاتها وطيران المروحة بين يديها، لكن أبداً ملامحها. كانت شموع تضيء القاعة والشرفة. لا يسعني القول ما إذا كانت الإضاءة الكهربائية موجودة في تلك الحقبة أو ما إذا كان أولئك الناس يستخدمون الشموع عن سابق تصميم، غير أن الشعلة المتمايلة كانت منعكسة في شكل رائع بذهب الحاجز، والأعمدة اللمّاعة والدَرْبَزينات. ضوء قمريّ حادّ كان ينير سبيل الماء والبركة والزورق المربوط قرب الحافّة. بعد حين توقّفت الراقصة، وراحت الخادمات يملأنْ أقداح المدعوّين بالساكيه. تصرّفهن المختلف إزاء السيّدة التي كانت تعزف على الكوتو دفعني إلى التفكير في أنها معلّمتهن. مؤسف أنها كانت جالسة في الجانب الأكثر انزواءً من الغرفة، وكان وجهها نصف مغطّى بضمّات القصب وزهرات الليسبيديز. كان والدي يبدّل موقعه دون توقّف، محاولاً رؤيتها في شكل أفضل، لكن الدَغْل منعه من ذلك. تفترض من تسريحتها، وتبرّجها الخفيف ولون الكيمونو الذي ترتديه، أنها ما

فتئت شابة. صوتها، بنوع أخصّ، كان ذا طابع فتويّ. كنا بعيدين جداً لأفقه ما كانت تقوله بذلك الصوت النقيّ والموسيقيّ، لكنه كان صوتاً فاتناً بلا حدود. كانت شربت قليلاً من الساكيه، وراحت تطلق، بين الفينة والأخرى، ضحكة سعيدة رشيقة الإيقاع.

«ـ هؤلاء الناس يحتفون بالقمر، أليس كذلك؟ سألت والدي.

«ـ محتمل جداً، أجابني وهو يدسّ رأسه أكثر في الوشيعة. وأردفت: «من يملك هذا المنزل يا أبي، أتعرف ذلك؟».

«لم يردّ على إلحاحي هذه المرّة سوى بتمتة غامضة، فكلّ انتباهه كان مركّزاً على السيّدة. مرّ وقت طويل على هذا النحو، إذْ كانت الخادمات قد نهضن مرّات عدّة لقصّ رؤوس الشمعات. ثم كانت رقصة، وبعدها سمعنا صوت سيّدة الكوتو الخلّاب يرتفع، ومكثنا هناك حتى انتهاء العيد. بعد ذلك أخذنا طريق العودة أخيراً، وتبعت والدي مجدداً على امتداد الضفّة...

«لعلّك تتساءل كيف أستطيع أن أتذكّر بهذا القدر من التحديد الأحداث التي جرت عندما كنت طفلاً؟ قلت لك ذلك، لم تكن واقعة فريدة. فقد كنّا نتوقّف كل سنة، بعد ذلك، قرب المدخل المذكور لنستمع إلى الكوتو والشاميزن، ثم محاذيين الدَغْل كنّا نكمن في الحديقة الداخلية. لم يحدث أبداً تغيّر ذو شأن في هيأة الغرفة التي تطلّ عليها. كل سنة، كانت سيّدة المكان تدعو إلى احتفال القمر هذا فنانين وخادمات»؟

ـ سبب ذلك الحجّ المتكرّر؟ أردف متردداً. يمكنني أن أفسّر لك منبعه، غير أني أخشى إزعاجك باحتجازك طويلاً...».

ألححت:

« لقد قلت الكثير عن ذلك، حتى الآن. سأندم على تفويت الباقي. تابع، أرجوك».

تناول مطرته.

«قبل المتابعة، فلنشرب المزيد».

قدم لي القدح ومرّة أخرى ملأت البقبقة أذنيّ؛ وقد فرغت المطرة، استأنف:

«ليلة البدر، في إحدى نزهاتنا السنويّة على طول النهر، كشف لي والدي حكايته: «قد لا تفهم ما سأرويه لك، قال، يلزمك أن تنتظر بلوغ سنّ أكبر، لكن إسمعني جيداً كي تبقى تتذكر كلماتي. سأكلّمك مثل رجل مكتمل، لا مثل ولد».

«فيما هو يحدّثني عن سيّدة الفيللا، كان تارة يستعمل عبارة «سيادتها»، وطوراً إسمها، أويو- ساما، وكانت عيناه تغرغران بالدموع. كان يقول لي: «لا تنسَ أبداً أويو- ساما. إن كنت أصطحبك كل عام إلى هنا، فلأنني أريدك أن تتذكرها طالما أنت حيّ...» كنت يافعاً جداً لأفهمه حقاً، لكنّ الفتيان فضوليون. بذلت، متنبّهاً إلى انفعاله، جهوداً كبيرة لإدراك معنى اعترافاته وشعرت أنني أفهم كل شيء تقريباً...

«كانت أويو واحدة من بنات عائلة كوزوبيه، من أوزاكا. دخلت وهي مراهقة ذات سحر نادر، في السابعة عشرة من عمرها عائلة كايوغاوا كزوجة لابنهم. بعد خمس سنوات من الحياة الزوجية، توفي

زوجها، تاركاً إياها في ريعان الشباب. لم يكن مفروضاً في أيامنا على امرأة بهذا العمر أن تلبث مخلصة لذكرى زوجها المتوفّى، وما كان أحد يستنكر زواجها ثانيةً. إنما في تلك المرحلة، كانت بعض العادات القديمة لا تزال تفرض سلطانها. كان أهلها وأهل زوجها أناساً كباراً في السن، محافظين وصارمين، يتمسّكون بذلك. فوق هذا، كانت أويو أمّاً لصبيّ صغير. كل ذلك جعل الزواج الثاني أمراً مستحيلاً لها. فالزواج الأول كان تلبية لرغبات عائلة كايوغاوا الجليّة. أرضت زوجها وحماها كثيراً إلى حدّ أنهما سمحا لها بالتصرّف في كل شيء حسبما ترتأي. بعد زواجها، باتت حياتها أكثر لامبالاة مما كانت عليه لدى ذويها، وإثر ترمّلها، ظلّت دائبة على الذهاب إلى الريف للتنزّه، محاطة بجماعة من الخادمات. تلك الرفاهية مُنحت لها باختيارها التامّ بحيث بدت لها الحياة سهلة وممتعة. كان ذلك بعد ترمّلها حينما لمحها والدي للمرة الأولى. كان في الثامنة والشعرين، وهي في الثالثة والعشرين، وقد حصل الأمر إذن قبل ولادتي، وكان أبي لا يزال آنذاك عازباً.

«ذات يوم، مع بداية الصيف، ذهب إلى مسرح دوتومبوري مع شقيقته، وصهره، وعمّي وعمّتي. كانت أويو جالسة في الشرفة التي وراءهم تماماً. كانت برفقة شابة بين السادسة عشرة والسابعة عشرة، وكانت امرأة كبيرة في السنّ تصاحبهما، وبدت مشرفة أو مربّية، ومعهنّ خادمتان شابتان تتناوبان على التهوية. وقد رأى عمّتي تحيّي أويو، سألها أبي من تكون. عرف اسمها، وانها كانت أرملة كايوغاوا. الصبيّة بجانبها كانت شقيقتها.

«ما أن استقرّت نظرتي على أويو ـ ساما، حتى أيقنت أنها المرأة التي

كنت أحلم بها»، قال لي والدي. في تلك الحقبة، كانت الزيجات المبكرة دارجة للجنسين، على الرغم من بقاء أبي، وهو الإبن البكر، عازباً في الثامنة والعشرين. بيد أنه كان يظهر صعباً للغاية في اختيار زوجة وقد رفض عدّة عروض. صحيح أنه كان مستسلماً للمتعة مع فتيات الجايشا، إلاّ أنه كان أبعد من أن يتشهّى واحدة منهنّ زوجة له. يجب البحث عن تطلّب كهذا في الغرائز الأرستوقراطية وميولها إلى الرهافة واللباقة، الجديرة بشخص من «الدايميو». لم يكن في وسعه احتمال امرأة مغناج. كان يتخيّل التي سيتزوجها، راكعة خلف طنفسات الزينة، مرتدية معطف الرَفْل وهي تقرأ «رواية الجنجي».

«قد ترى أنه كان أمراً غير طبيعيّ، لتاجر مثل أبي، أن يُبدي ادعاءات مشابهة، لكنّ العائلات التي كانت تعيش في حيّ سيمبا من أوزاكا، كانت تلحّ على الخدّام المهذّبين، محترمي الآداب، وتعلّق أهمية كبرى على صفّهم الاجتماعي. في الحقيقة، كانت تلك العائلات تفوق، في العديد من النقاط، الأكثر إفلاساً بين أفراد النبلاء. كان أبي، الذي تربّى في هذا الوسط، يتشبّع من ميول السيّد. وهكذا، ما أن رأى أويو، حتى أدرك أنها كانت تجسّد مثال المرأة لديه.

«لم أفهم بوضوح كيف امتلك ذلك اليقين، لعلّها كانت طريقتها في مخاطبة خادماتها، وتصرّفاتها الرهيفة، ورقّتها، هي التي أقنعته في أنها ستكون زوجة رائعة لرجل مثقّف. صورتها تظهر لنا امرأة جميلة ممتلئة الوجنتين، صاحبة وجه بيضاوي مثل بذرة الشمّامة.

«كان والدي يقول لي حرفيّاً: «ربما كانت نساء أخريات يضاهينها جمالاً، لكنّ هالة مضيئة كانت تخفق من حول أويو- ساما وتظلّل عينيها وأنفها وفمها في شكل خفيّ، ملطّفةً كل ملمح في وجهها،

مكوِّنةً ما يشبه الحجاب الرقيق. عبارة «تَميُّز» وحدها تستطيع وصف سحنتها، وفي هذه الميزة كانت تكمن قيمة شخصيتها كلّها». امرأة ممهورة بهذا النوع الشامخ تحتفظ طويلاً بنضارة وسحر شبابها، إلاّ إذا أُرهقت بأعمال المنزل المضنية. «أويو، كانت تقول عمّتي، لم تتغيّر هيأتها من عمر المراهقة حتى مشارف الخمسين». كانت عمّتي تعاشرها منذ طفولتهما المشتركة، كانتا تتابعـان دروس العزف على الكوتو عند المعلِّم نفسه.

«عدا التي رافقتها إلى المسرح، كانت لدى أويو شقيقات عديدات، إنّما كانت هي المفضلة بينهنّ. حرّة التصرّف كما يحلو لها، كانوا يعاملونها بأكبر قدر من التساهل، ربّما لأنها كانت الأجمل. وشقيقاتها كنّ، من ناحيتهنّ، يجدن تلك المعاملة التفضيلية أمراً طبيعياً. بحسب عمّتي، نعمت أويو بكل الحظوظ دون أن يعترضها عـائق إطلاقـاً. مع ذلـك، لم تكن تفعل شيئـاً لتفـرض نفسهـا ولا لسحق الفتيات الأخريـات بشعور متـطرّف عن أهميتها. كن يحـطن بها ويخدمنها كفتاة مولودة نبيلةً وكن يبذلن كل شيء لحمايتها من جراح الحياة. حينما كانت تذهب عمّتي لمشاركتها اللعب، كانت تتحقق من أن أويو معفاة من أي همّ. كانت كنز عائلة كوزوبيه. شقيقاتها الكبريات أو الصغريات كنّ يلعبن من حولها دور آنسات الشرف أو الوصيفات. إنّما لا شيء من ذلك كان يبدو غير طبيعي، وبالرغم من كل شيء، لم تكن مدلّلة.

«تلك التفاصيل ضاعفت من الاهتمام الذي كان والدي يحمله لها، دون أن تسنح له فرصة لقائها ثانيةً. مع ذلك، اقترحتْ عليه ذات يوم مرافقتها إلى المسرح، قائلةً له إن أويو ستظهر على خشبة المسرح

لتعزف على الكوتو. حضر والدي ذلك الحفل بالطبع. ظهرت، وقد أسدلت شعرها على ظهرها، مرتدية كيمونو احتفالياً، ومعطفاً فضفاضاً ثميناً مفروشاً من حولها. لعبت، راكعة خلف آلتها، معزوفة الـ «يوغا». وكانت مبخرة مشتعلة قربها. حتى اليوم، كما تعرف، حينما يرضي التلامذة متطلبات معلّمهم، يقام احتفال على شرفهم. وإذا كان التلامذة من عائلة ثرية، يختارهم المعلّمون غالباً للظهور في استعراض باذخ.. كانت أويو تدرس آلة الكوتو لملء وقتها ولا ريب في أن معلّمها كان أقنعها بالظهور أمام الجمهور. بينما في ما يتعلّق بغنائها، فقد سمعتها بنفسي وحدثتك عن الموضوع آنفاً. أمّا والدي فقد تأثّر جداً وهو يسمعها تغنّي لأول مرّة، عازفة على الكوتو في الوقت نفسه. ألم تكن ترتدي حتّى ثوب الاحتفال الذي كان يتمنّى إلباسه زوجة المستقبل؟ هكذا كانت تجسّد حلمه الأغلى.

«بعد انتهاء الحفل الموسيقي دخلت عمّتي إلى الكواليس. لم تكن أويو غيّرت ثوبها وكانت لا تزال ترتدي ملابس القصر. قالت: «ما أهمية الحفل الموسيقيّ؟ ما كنت أتمنّاه حقاً، كان أن أتمكّن من التزيّن هكذا مرّة في حياتي». فهم والدي، بعد معرفته بذلك التفصيل، أن ذوقيهما كانا متطابقين. واقتنع أكثر من أي وقت بأن أويو كانت تمثّل الزوجة المثلى التي حلمت بها مخيّلته، فقرّر أن يطلبها للزواج.

«تكلّم إلى عمّتي في الموضوع. لكن هذه الأخيرة وعلى رغم لطافتها، أجابت عارفةً وضع أويو: «أخشى أن يكون الأمر مستحيلاً. لو لم يكن هناك الولد، لأمكنني تدبير شيء ما، بيد أنها أعطت عائلة كايوغاوا الوريث الذي كانوا يحلمون به وواجبها هو

أن تربّيه. فوق ذلك كان والدها وحموها لا يزالان حيّين. منحها ذانك الرجلان مختلف أنواع الامتيازات بسبب كونها أرملة شابة. وبذلا جهودهما للترفيه عن وحشتها بإظهار الكثير من العطف لها، لكنّهما انتظرا منها في التأكيد أن تظلّ وفيّة لذكرى زوجها. ووعت أويو الأمر تماماً، ففيما عاشت حياة رفاه لا مبالية، لم تعط أبداً حجّة لأدنى فضيحة في ما يتعلق بعفافها. يبدو جليّاً أنها لا تنوي الزواج ثانية».

«مع ذلك بدا لوالدي مستحيلاً أن ينسحب. ألحّ: «إذا كان عليّ التخلّي عن أي مشروع زواج، فإنني أرجوك أن تحاولي جعلي أقابلها على الأقلّ. سأكتفي بالنظر إليها...».

«لم يكن في وسع عمتي أن تصدّ في وحشية التماسه، لكن على رغم حميميتهما كصبيتين، فإن الزمن كان أبعدها عن أويو شيئاً فشيئاً. بعد تفكير، عرضت شيئاً آخر:

«- ما رأيك في شقيقة أويو الصغرى؟ تقول إنك لا ترغب في الزواج من امرأة أخرى، لكن لماذا لا ترضى بأختها الصغرى؟ لا أمل مع أويو، ولكن مع أختها سيكون لك حظّ».

«كانت تقصد الشابة التي رافقت أويو إلى المسرح. كانت تدعى أوشيزو، وقد بلغت لتوّها سنّ الزواج. كان أبي رآها في العرض وتذكرها جيداً. فكّر طويلاً. هي أيضاً كانت تملك جاذبية، حتى وإن كانت من نوع مختلف، فملامح وجه أوشيزو تذكّر بتلك التي لأويو، ومع ذلك، كانت تفتقد في نظر والدي تلك «الميزة» التي لا يمكن تحديدها لدى أويو. لو لم تكن أوشيزو أخت أويو، لما أعار الأمر

انتباهاً، بيد أنهما كانتا من اللحم والدم ذاتهما، عدا ذلك، أما كان شعر نفسه مذنباً بالزواج منها دون حبّ؟ لعلّه كان من الأفضل أن يحتفظ في قلبه بتشهّيه أويو؟ كان يشك في أنه حتى ولو تزوّج أوشيزو فإنّه لن ينعم بأي سكينة: فكرة كونه غير مخلص لأويو كانت تطارده. ومن جهة مقابلة، لكان حظي بفرص عديدة، بزواجه من أختها، لرؤيتها والتحدث إليها...

«انتهى إلى قبول مقدمات طلب الزواج، دون أن يكون قرّر السير بها حتى نهايتها. إذا كان قَبِلَ في أعماقه بذلك، فإنّما على أمل حضور أويو المقابلة وأنه سيتمكّن بذلك من إشباع غليله برؤيتها. ذلك الأمل لم يكن بلا أساس: كانت أويو تحضر إلى كل اجتماعات العائلة.

«حينما نوقش زواج شقيقتها، نالت في شكل طبيعي نصيباً من المفاوضات، مكان والدتها المتوفّاة. وبهدف التمكّن من رؤيتها مجدداً، أخّر أبي جوابه أطول فترة ممكنة. وهكذا حظي طوال ستة أشهر بمواعيد عدّة. وانتهى بها الأمر إلى أن تحزر والدي وتحزر ميوله. سألته ذات يوم: «أتُسئمك أوشيزو؟ - كلا، على الإطلاق، أجاب. - إذن، لِمَ لا تتزوّجها؟». كانت تخاطب عمتي بطريقة أكثر حريّة: «لقد عشت مع أوشيزو متفاهمتين على أكمل صورة وآمل أن تصبح زوجة أخيكِ سيريزاوا. أكون سعيدة جداً بمصاهرته».

«في النهاية، تزوّج أبي أوشيزو... لقد حزرتَ أن أوشيزو هي أمّي وأويو خالتي. أليس كذلك؟ قصتي حتى الآن بسيطة للغاية، إنّما هنا ستتعقّد. ليلة العرس، ذرفت أوشيزو الدموع بغزارة: «لقد أمسيت زوجتك، قالت لوالدي، لأنني حزرت مشاعر أختي. لن أستطيع وهبك نفسي إذن. سأرضى بأن أكون زوجتك بالاسم فقط،

ولكنني أتوسّل إليك، أن تجعل أختي سعيدة!».

«لدى سماعه تلك المواقف المفاجئة، ظنّ أبي نفسه يحلم. لم يكن تخيّل أبداً إمكان أن تحبّه أويو. أن تكون استجابت لحبّه الذي فاق أكثر الآمال جنوناً.

«- كيف تعرفين مشاعر أويو؟ قال. يلزمني برهان على أقوالك. هل اعترفتْ لكِ؟

«- كلا، لم تبح بشيء أبداً، وما كان في وسعي قطّ أن أسألها في هذا الموضوع، بيد أن الحقيقة ظاهرة بالنسبة إليّ».

«تجده بلا ريب أمراً غريباً أن تكون فتاة بلا تجربة مثل أوشيزو ارتابت في مشاعر مماثلة. سأفسّر لك كيف يمكن أن يكون ذلك ممكناً، في ضوء بعض الوقائع التي انجلت لاحقاً.

«في البداية، خلُصَتْ العائلة كوزوبيه سريّاً، إلى رفض عروض عمّتي، متذرّعة بفارق السنّ. وشاركتهم أويو الرأي بادىء الأمر. ومع ذلك، قالت فجأة لأختها عندما زارتها: «لقد فكّرت في مشروع الزواج هذا. أعتقد أنكِ لا تستطيعين تمنّي الأفضل. هذا لا يعنيني مباشرة، بالطبع، ولن أحاول التأثير في قرارك، لكن إن لم تكوني تكرهين سيريزاوا، فلِمَ عدم الزواج منه؟ إذا ما اتخذت قراراً، فإنني أعدك بتسخير رصيدي لصالحك وبترتيب المسألة».

وأجابت أوشيزو، التي لم تكن حتّذاك لا مع ولا ضدّ:

«- إذا كان هذا الاتحاد يروق لك، يا أختي الكبرى، فإنما لكونه مستحبّاً. سأمتثل لما ترينه الأفضل.

«ـ ما تقولينه يفرحني. فارق عشر إلى إحدى عشرة سنة في العمر بين زوج وزوجة ليس بالأمر غير العادي . خصوصاً أنني أعتقد بأنني سأتفاهم جيداً معه. بعد زواج أخواتنا الباقيات، غدت علاقاتنا متباعدة. أصبحن غريبات. لا أرغب في أن يحدث هذا بحالتك. إن تزوجتِ سيريزاوا فلن يكون عندي انطباع بأنني فقدت أختاً، بل على العكس، بأنني ربحت أخاً. أبدو وكأنني أدفعك إلى القبول لأرضي نفسي، أخشى ذلك. لكنني مقتنعة بأنّ رجلاً يرضيني ينبغي أن يعجبك أيضاً. أقترح عليكِ إذن أن تتبعي نصائحي وتظهري لي الطاعة التي كنت أظهرتها لأمّنا لو كانت لا تزال حيّة. إن لم أكن أحبّ الرجل الذي تتزوّجينه، فمن عداه أستطيع أن أعاشر؟ سوف أشعر نفسي وحيدة يائسة. . .».

سبق أن قلتُ لكَ، إن أويو التي كان محيطها يدلّلها، ما كانت تنتبه إلى أن موقفها كان أحياناً شخصياً جداً، وأحياناً أخرى غير طبيعي. وكان حثّ أوشيزو على التفكير في زواج تقبل به يبدو لها أمراً طبيعياً جداً. لم يكن لديها، بفعلها ذلك، أي قصد خلقيّ. بيد أن أوشيزو، وجدت موقف أختها الكبرى ، من جهتها، مختلفاً قليلاً عن نزواتها المألوفة. بقدر ما كانت تُظهر مواقف أنانية لاواعية وجهلاً، بقدر ما كان جمال أويو يشعّ وخيِّل إلى أوشيزو أنها تقرأ في أفكارها.

«غالباً ما تملك الفتيات الخجولات والرزينات ملَكة الملاحظة التي تفوت الآخرين. كانت أوشيزو من أولئك. بمجرّد ما تصحو شكوكها، فإنها تُطلع منها استنتاجات غير متوقعة كلّياً. قيل لي، إنّه ما أن تعرّفت أويو بوالدي، حتى بدت أكثر مرحاً وحيوية. حينما كانت تتحدّث عنه مع أختها الصغرى، كانت تنتعش في بطريقة غريبة.

«ـ سيكون الأمر كما تشتهين، قال أبي لأوشيزو عشية زواجهما، متظاهراً باللامبالاة التي لم يكن يشعر بها وخاشياً أن تخونه خفقات قلبه. لكننا اتحدنا من الآن فصاعداً بروابط أبدية، إنسي أيضاً، أرجوك، سائر مخاوفك، إخلاصك تجاه شقيقتك الكبرى يستحقّ الإجلال بالتأكيد، ولكن إذا كانت هي التي تدفعك إلى مثل تلك الاستنتاجات، فكوني واثقة من أن أختك لن تقبل بها. لم تبد أويو - ساما قطّ بالتأكيد تمنيّاً كهذا ولم تبرز أي إلماح من هذا النوع. ستؤلمها معرفة ذلك.

«ـ إذا كنت تزوجتني يا سيريزاوا ـ سان، قالت أوشيزو، أليس خصوصاً لتغدو أخاها؟ عمّتك قالت ذلك لأويو ـ ساما، لقد سمعتها. أعرف أنك رفضت اقتراحات زواج أخرى. وبالنظر إلى ميولك، فإن زواجك من فتاة عادية جداً مثلي غير ممكن أن تكون له أسباب أخرى.

«حار والدي بما يجيب وطأطأ رأسه.

«ـ لو كنت أستطيع كشف مشاعرك إزاءها، تابعت أوشيزو، لملأتها حبوراً. لكنني أخشى رؤيتك مرتبكاً في حضرتها. لذا ألتزم الصمت. إلاّ أنني أتوسّل إليك، كن صادقاً معي وقل لي كل شيء».

«ـ في الواقع، كنت جاهلاً الظروف التي دفعتك لأن تكوني زوجتي. لن أنسى ما حييت سخاءً كهذا، قال أبي دامع العينين. لكنني أفكّر في أويو ـ ساما كأخت فحسب. بقدر ما تظهرين لها إخلاصاً، بقدر ما يزداد ارتباكنا. هذا الوضع لن يكون مرضياً لكِ أبداً. إلاّ إن لم تكوني تشعرين، أيضاً، بأي عطف نحوي، فإنني

أرجوك أن تتوقفي عن الكلام والتصرّف كغريبة. فلنكن زوجاً وزوجة. هكذا نشعر بإخلاصنا إزاء شقيقتك الكبرى. سنحترمها كلانا في المستقبل كأختنا.

«- لا أبداً. القول بأنني لا أحبّك أو أنني تعِسَة، يكون كفراً. لطالما سعيت إلى إرضائها في كل شيء. إنها تحبّك، إذن أحبّك أيضاً. لكنني أكره الزواج من رجل تحبّه. كل حميميّة بينكما وبيني ستفاقم الوضع. من ناحية أخرى، لو لم أدخل حياتك كزوجة، لتوقفت علاقتك بها أدباً. إذن سوف أكون لك مثل الأخت.

«- هكذا، تتمنين بسبب أويو- ساما، تمضية حياتك كلها مثل غصن ميت؟ أشك في استطاعة امرأة أن تقبل بتضحية كهذه.

«- آه! إنّك تسيء الظنّ عمداً. سأكون الأخيرة في ثَلْم شرف أويو- ساما، لكن إن بَقِيتْ مخلصة لزوجها المتوفّى، فإنني عازمة على إظهار الإخلاص نفسه لها. إذا ما حُرِمتُ الحياة الزوجية السعيدة، ألن يكون الوضع مشابهاً لها؟ لقد خُلقت أختي جميلة ووَدودة، لتكون معشوقةً. كل عائلتنا أولتها عنايةً وعاملتها كابنة سيّد. هكذا كانت حياتها حتى اليوم. لطالما أُرضيت أتفه نزواتها، إلى حدّ أنها لم تعد تستطيع شيئاً في الوضع الذي نحن فيه الآن. إنها تحبّك بأقصى ما يمكننا أن نحبّ، لكنّ الأعراف تحرّم عليها ذلك. السماء تعرف وستجازيني إن كنت آخذك من أختي. لو كانت تسمعني، لاستحلفَتني، بالطبع، ألاّ أتصرّف على هذا النحو. أسألك إذن أن تتصرّف بطريقة لا تجعلها تعلم شيئاً حول ذلك، من أجلِ سلامِ روحيْ. لا تستطيع أويو- ساما التي حَبَتْها الطبيعة أن تفرض إرادتها دوماً. لستُ شيئاً بجانبها. واجبي الأوحد قوامه أن أجعلها سعيدة

قدر الإمكان. بهذا القصد جئت إليك. آمل أن ترضى بقبول قراري وأن تتصرّف كزوجي في الأماكن العامة، إنّما مع بقائك مخلصاً لها عندما نصبح وحدنا. إذا لم تكن قادراً على ذلك، فإنني سأستخلص أنك لم تحبّها بمقدار ما أحببتُها. . .».

«على أثر تلك المحادثة، مكث أبي موسوساً بفكرة ثابتة: ألّا يكون مديناً لأوشيزو مع إظهار حبّه لأويو. كان ينبغي عليه أن يبدو مستحقاً تلك التي تضحّي بنفسها بمثل هذه الحماسة.

«ـ لقد فهمتك جيداً، قال لها. من أعماق قلبي، أنذر لها إخلاصي طالما بقيت أرملةً. إنّه ندمي بجرّك إلى كل تعقيدات حياتي الحميمة وإرغامك على العيش مثل راهبة، هو الذي دفعني إلى معاكستك، لكنني أدرك بعد استماعي إليك طيبتك اللامحدودة، ولا أضمر لك سوى الامتنان العميق. وبما أنك قررّت في حزم، فلن أبدي أي اعتراض. ومع خطر الافتقاد إلى الذوق، أعترف لك إذن أنني سعيد بهذا القرار».

«وفيما هو يقول ذلك، أمسك بيد أوشيزو ورفعها إلى جبينه بورع. تلك الليلة، لم يغمض لهما جفن، لكنهما تحدّثا حتى الفجر.

«أوحى الزوجان، دون أن يكون اتحادهما كاملاً، بالتفاهم التامّ. بدا أنّه لم تقع أبداً مشادّات بينهما. وأويو نفسها كانت جاهلةً قرارهما. كانت تتباهى بنجاح ذلك الزواج وتعلن لأنسبائها أنها كانت محقّة بتدبيره.

«بعد ذلك، صارت أويو تلتقي العروسين كل يوم تقريباً. في كل مرّة كانت تذهب إلى المسرح، كان الزوجان سيريزاوا يرافقانها. وغالباً

ما كان الثلاثي يقوم برحلات قصيرة من يوم أو يومين، وينامون جنباً إلى جنب في الغرفة نفسها. وأضحى ذلك عادة شيئاً فشيئاً. وكان الزوجان سيريزاوا ينامان أحياناً عند أويو، أو تبيت هذه الأخيرة ليلتها في منزلهما.

«لطالما بقي والدي، حتى شيخوخته المتقدّمة، يستعيد تلك الذكريات الحنونة عن تيك الفترة. قبل أن تستقرّ أويو ليلاً، كانت تقول: «ـ أرجوكِ يا أوشيزو، دفّئي لي قدميّ» كانت ترجو شقيقتها أن تتمدّد بجانبها، إذ كان جسد أوشيزو، المملوء حرارة، مناسباً جداً لتلك الوظيفة.

«كانت أويو تترك ولدها مع حاضنة ونادراً ما تصطحبه معها. ذات يوم، توجهوا إلى جبال يوشينو لرؤية شجرات الكرز المزهرة. وفي الفندق، ليلاً، أزعج أويو ـ ساما ثدياها المنفوخان بالحليب، ورجت أوشيزو أن تريحها. هتف والدي، وهو ينظر إليهما، ضاحكاً: «ـ كم أنت ماهرة في الرضاع!

«ـ مذ أنجبت شقيقتي الصغير هاجيم، اعتدتُ على امتصاص حليبها، قالت أوشيزو. ليست المرة الأولى التي تطلب فيها أويو ـ ساما ذلك منّي.

«ـ ما مذاق هذا الحليب؟ سأل والدي».

«ـ أجده غريب الحلاوة. ألا تريد تذوّقه؟».

« جمعت أوشيزو قليلاً منه في طاس وقدّمته له. إحمرّ والدي، رغماً عنه، إذ كان يشك في حافز دفين دفع أوشيزو إلى ذلك. وهتف مضطرباً: « ـ يا للمذاق الغريب!» وفرّ في الرواق حين كانت

أويو ـ ساما تهتزّ بنوبة ضحك في الغرفة.

«بعد تلك الحادثة، قامت أوشيزو، التي بدت ملتذّة برؤية زوجها مرتبكاً أو مضطرباً، بأكثر من حيلة. لم يكن الثلاثة يبقون غالباً معاً، في أثناء النهار خوفاً من جذب الانتباه، لكن عندما كان يحصل ذلك كانت أوشيزو تختفي فجأة، وتتركهما طويلاً لوحدهما. ثم، حينما لا يعود الوضع يطاق لها، كانت تظهر من جديد بغتةً وتأخذ مكانها ثانيةً. كانت تُجلسه دوماً بجانب أويو إلى الطاولة. وإذا كانوا يلعبون الورق أو ألعاباً أخرى، كانت تدبّر الأمر بحيث يجلسان متقابلين. عندما كانت تطلب إليها أويو أن تعقد لها ربطة «الأوبي» خاصتها، كانت تحيل الأمر إلى أبي. وحينما كانت أويو تنتعل خفّيها الجديدين، كانت أختها ترجو والدي أن يربط لها المشباكين، وكانت تتأمّله يفعل ذلك، لاهيةً بخجله وفزعه.

«كانت تلك الدعابات تبدو كلّية البراءة، مجرّدة من السخرية أو النوايا المؤذية. لكن ألم تكن أوشيزو تحاول أن توحي إلى أنه ينبغي أن يزول ذلك التحفّظ الذي كان يفرّقهما؟ عندما تحلّ الساعة، يمكنهما، وقلباهما يخفقان للاتحاد، أن يستسلما للحبّ الذي يكابدانه الواحد للآخر. لأمكننا القول أحياناً إنها كانت تنتظر تلك اللحظة وتصلّي لكي يستسلم كلاهما لعنف شغفهما».

«على رغم تلك الحيل، لم تتطوّر العلاقات بين والدي وأويو ـ ساما، لكنها سرعان ما فسدت بين الشقيقتين. لم يلاحظ بنفسه شيئاً غير طبيعي. ومع ذلك، ما أن رأت أويو والدي، ذات يوم، حتى ملأت الدموع عينيها. استدارت، خافية وجهها. كانت حركة غير متوقّعة إطلاقاً الأمر الذي جعله يدقّق مع أوشيزو».

«ـ أختي تعرف الآن، أجابت بحثُ لها بكل شيء خلال نقاش بيننا».

«ألحَّ لكنّها رفضت الإفصاح عن الظروف التي أجبرتها على ذلك الاعتراف، ولبـث مشكّكاً حول دوافعها. من المحتمل أن تكون أوشيزو لجأت إلى المنطق الآتي: «لقد حان الوقت لأعترف بسرّي إلى أويو. حينها تكتشف أن لا شيء من الزوجيّ في حياتنا، فإنها ستلومني بالتأكيد، بيد أنها ستعي لاحقاً أيّة روابط تجمعها بأختها الصغرى وبصهرها».

«اكتشف والدي في وقت لاحق ما حدث. عندما باحت لها شقيقتها بالسرّ، لم تصدّق أويو أذنيها. أصابها الندم، وصرخت: «ما كنت لأتصوّر أبداً أنني امرأة شريرة إلى هذا الحدّ، مرتكبة خطيئة كهذه! ماذا سيحلّ بي في العالم الآخـر؟ فكّرا أنتما الإثنان! الأمر ليس متأخراً بالتأكيد، اعتباراً من اليوم، يجب أن تكونا حقاً زوجاً وزوجة».

«تصلّبت أوشيزو: «لم نتّخذ هذا القرار نزولاً عند إلحاحاتك. اخترنا زوجي وأنا نمط الحياة الذي كنّا نؤثره. أتوسّل إليك ألاّ تحكمي علينا. دعي الأمور على حالها، كما لو أنك لم تكتشفي سرّنا. كنت غبية في محادثتكِ بالأمر».

«أصبحت زيارات أويو، أقل تواتراً لبعض الوقت، غير أن عائلتيهما كانتا تعرفان الكثير عن حميميّة الثلاثيّ ليتمكنّا من تبديل الموقف فجأة. سرعان ما التقوا مجدداً كالسابق.

«إذا ما حلّلتُ مشاعر أويو ـ ساما المحتملة في تلك الحقبة، يبدو لي

إنه لا بدّ أن تكون تصرّفت وفق الطريقة الآتية: قاومت، أولاً الإكراه النفسي الذي نتج من اكتشاف تضحية أختها. ثم خفّف الوقت ذلك الضغط. ما كان في وسعها لوم أوشيزو على كونها تكلّمت. انتصرت رحابة صدرها في النهاية، وارتضت المشاركة في ذلك الترتيب، وقد تكون كفّت عن اعتبار تلك العلاقات المشتركة غير طبيعية».

«في تلك المرحلة تقريباً بدأ والدي يناديها أويو ـ ساما، كما لو أنها سيّدة من النبلاء، عوض القول أويو ـ سان[1] فقط. وأظهرت أويو تمتعاً كبيراً حداه إلى مواصلة ذلك.

«كانت لديها أحياناً نزوات طفوليّة. ذات يوم، رجت والدي أن يحبس أنفاسه إلى حين تسمح له بالتنفّس. ووضعت يدها أمام منخريه. وتمالك نفسه على هذا النحو قدر الامكان، ثم سفَطَ قليلاً من الهواء. صاحت: «لقد أخلفت بوعدك!» سكّرت له شفتيه بأصابعه، ثم كمّمته بوشاح في دقّة.

«علا سمنتها الفتيّة، في تلك اللحظات، تعبير طفوليّ جداً لا يمكننا أن نصدّق أنّه لامرأة جاوزت العشرين. كانت تصيح أحياناً: «لا تنظر إليّ بهذه الوقاحة! إبقَ راكعاً، في شكل صحيح، إخفض رأسك وضع يديك مبسوطتين فوق الحصيرة! هكذا لن تجرؤ على الضحك». ثم كانت تدغدغ له ذقنه وجانبيه.

«أمست علاقة أبي بأخت زوجته على هذا القدر من الإلفة بفضل أوشيزو في نوع خاص. تنبّه الثلاثة إلى أنهم صاروا يلمحونهم أقلّ في منزل سيريزاوا منه عند عائلة كايوغاوا، حيث انتهى تصرّفهم إلى

---

(١) التعبير اللاحق «سان» يدلّ في آن إلى «سيّد» و«سيّدة» و«آنسة» (المترجم).

جذب الانتباه. حينها غدت زيارات أويو أكثر تواتراً. كان الثلاثة يذهبون معاً، بلا خدم، في رحلة إلى معبد «إيز» أو «كوتوهيرا» المقدّسين. كانت أوشيزو تتزيّا بكثير من الاحتشام، كما لو كانت خادمة أويو. حتى أنها كانت أحياناً تفترش مرقدها في غرفة ثانية.

بالنظر إلى كل ذلك، كان أسهل لوالدي ولأويو أن يتحوّلا زوجاً وزوجة في النزل، بيد أن أويو كانت تفضّل البقاء في مصافّ السيّدة الرفيعة المقام، بحيث أن أبي غالباً ما كان يلعب بجانبها دور المدير، أو الفنّان الذي تديره بنفسها. كان مثل أوشيزو يدعوها آنذاك «سيادتكِ». تلك التمثيلية كانت تفتن أويو. لم تكن على الإطلاق تشرب كثيراً، إنّما كانت بعد بضعة أقداح على العشاء، تتجاسر، وتقهقه وتبدأ في الهزل أمامهما.

«بالوصول إلى هذه النقطة من الحكاية، ينبغي أن أزوّدك ببعض الإيضاحات حول سلوك أويو ووالدي. كانت حميميّتهما وثيقة على نحو غير طبيعي، إلاّ أن عفّتهما لم تتأذّ منها. ومع ذلك، تطوّرت علاقتهما بحيث أنه لم يعد مهماً فعلاً أن يمتنعا عن العلاقة الجنسية، لكنني أريد تصديق كلمات والدي.

«ـ بعد كل هذه السنين، قال لأوشيزو، ما جدوى التقدّم إليك بالشكر أو بالاعتذارات؟ ومع هذا أقسم لك بالآلهة والنفوس المخلِّصة، أننا حتى ونحن نائمين جنباً إلى جنب، لم ألمس أويو ـ ساما قطّ. أعرف أن ليس هذا ما كنت تتمنّينه، ولكن، هي وأنا، نعرف أننا بتحميلك هذا الذلّ الأخير، تهلك نفسينا إلى الأبد. إمتنعنا عن ذلك كي نخفّف الحمل المُثقِل على ضميرينا».

«لعلها كانت الحقيقة، لكنّ سبباً آخر كان يلجمهما أيضاً بلا ريب: الخوف من إنجاب طفل »...

«للعفّة النسائية وجه مزدوج. يمكن لسلوك امرأة أن يكون من بين الأكثر لاأخلاقية دون تجاوز الحدود الكيفيّة التي تفرّق الرذيلة عن العفّة. إذا ما حكمنا على ذلك من خلال سلوكها في شكل عام، فمن العسير إعفاء أويو ـ ساما من أي لوم.

«كان أبي حفظ باهتمام بالغ مجموعة من الكيمونو الشتويّ ذات البطانة القطنيّة. كان يحتفظ بها في صندوق من خشب الباولونيا، حيث كتبت أويو ـ ساما بالريشة فوقه: «معطّرة بالأَلْوَة». ذات يوم، أخرجها من الصندوق ليريني إيّاها. كان هنالك في التحديد رداء طويل من الحرير مرسوم باليد، مصنوع ليُلْبس تحت الكيمونو. حمله أمامي، وشرح لي: «هذا الثوب ارتدته أويو ـ ساما. زن كم هي ثقيلة الكريبة».

«حملته بين يدي. كان كلامه صحيحاً. كان القماش أكثر تغضّناً وتجزّعاً من كريبات الحرير الحديثة، والنسج أكثر سماكة».

«كريبة الحرير ليست دوماً من نوعية جيّدة إذ أنّها ليّنة، تابع والدي. ينبغي تقديره وفق نعومة ثنياته. عندما نلمس جسد امرأة عبر كريبة كهذه، فإن برغلات الجسد تكون أكثر محسوسيّةً، والقماشة نفسها، تظهر أروع للمس، حينما تغطّي بشرة ناعمة. عبر هذا الحرير الثقيل، كانت أطراف أويو ـ ساما الضعيفة تبدو أيضاً أكثر رفعاً.

«أمسك بالثوب كما لو كان يحتضن أويو ـ ساما نفسها، وحفّ به خدّه بنعومة...».

ـ حينما أراك والدُك هذا الثوب، قلتُ، كنتَ رجلاً مكتملاً على ما أفترض؟ وإلّا كيف يسع فتى صغير أن يفهم تلك الأمور؟

ـ كلا، كدت أكون في العاشرة، بيد أن والدي كان يخاطبني كراشد. في العادة، لا أفقه الأمور في اللحظة، لكنني كنت متنبّهاً. مع نمائي اكتشفت شيئاً فشيئاً معنى كلماته.

ـ إسمح لي بسؤال. إنّ علاقة والدك بأويو ـ ساما، كما وصفتها، تغمرني بالشكّ. إبن من أنت حقّاً؟

ـ إنك محقّ في استفساري عن ذلك. لو احتفظتُ بالصمت، لما وصلتُ إلى خلاصة حكايتي. أخشى أن أكون استغلّيت صبرك، لكن تحمّل بعد قليلاً من ثرثرتي.

«لم يستمرّ ذلك الحب الغريب بين والدي وأويو ـ ساما طويلاً. دام سنتين أو ثلاثاً. كانت بلغت السابعة والعشرين حينما توفيّ الصغير هاجيم الذي رزقت به من كايوغاوا، بذات الرئة إثر حصبة. كان لموت هذا الطفل انعكاس عميق على حياة أمّه، ومن ثم على علاقتها بوالدي.

«أفسحت حميميّة أويو ـ ساما مع الزوجين سيريزاوا في المجال لأقاويل غير ملائمة إلى حدّ بعيد، إذا لم يكن في منزلها، حيث لم يكن أحد ينتقد سلوكها، فعلى الأقلّ من جانب حماتها وعائلة كايوغاوا. كانوا يثرثرون كثيراً والبعض كان يجد موقف أوشيزو غير قابل للتفسير. كانت لباقة هذه الأخيرة تجاوزت كل الحدود. وحدها عمّتي احتفظت بتعاطفها مع الثلاثيّ وقلقت لمصيرهم. جميع الآخرين كانوا يوبّخون أوشيزو، وينتقدونها بحدّة على «أمانتها» المفرطة إزاء شقيقتها

البكر. في البداية، لم يحذر الكايوغاوا الشائعات، لكن بعد موت الطفل لَمحوا إلى أنّه هلك بسبب إهمال أمّه. ما كان في وسع أويو ـ ساما الهروب من الملامة. كانت تحبّ ولدها، إلاّ أنها كانت معتادة على تمضية نصف نهارها في المنزل، ومن ثم تخرج تاركة إيّاه في عهدة المربّية. وقد تزايد مرضه فجأة في خلال أحد غياباتها.

«طالما كان الولد على قيد الحياة، كانت أمّه تحتل مرتبة أساسية في عائلة كايوغاوا. بعد غياب الصغير هاجيم، ما عادوا في حاجة إليها. علاوة على ذلك، كانت فسدت سمعتها وأضحت همّاً لهم. بدا أن عودتها إلى عائلتها الحلّ الأنسب، من أجل تلافي تعقيدات جديدة».

«ناقشت العائلتان بذوق مستقبل أويو ـ ساما، ومن دون تلميحات غير لائقة، ودون جرح أحد، تقرّر شطب إسم أويو ـ ساما من السجلّ المدنيّ لعائلة كايوغاوا.

«عادت إذن إلى بيتها الأوّل حيث أحيطت بالكثير من العطف والعناية. استقبلها شقيقها البكر، سيّد المنزل، بحفاوة، إذ كان يرى أن الطريقة التي استخدمتها عائلة كايوغاوا مع أخته فظّة قليلاً. إذ ذاك، لم تعد هذه الأخيرة قادرة على التصرّف في حرّية أكثر من تلك التي كانت متوافرة أيّام كان والداها حيّين».

«عندها دعتها أوشيزو للمجيء كي تسكن في منزلها، في حال لم تكن مرتاحة عند أخيها، لكنّ هذا الأخير رفض في شكل قاطع.

«ـ سيكون عملاً جنونياً تغذيه الثرثرات»، قال.

«فهمت أوشيزو أن شقيقها كان منبّهاً إلى الوضع الحقيقي لزواجها، كذلك نصح أويو ـ ساما، في خلال السنة ذاتها، بالزواج

ثانيةً.

«طالب الزواج كان تاجر ساكيه من فوشيمي، يدعى مييازو. كان يفوق أويو- ساما عمراً بكثير، إنّما كان يتردّد منذ زمن بعيد على عائلة كايوغاوا. وبما أن زوجته كانت توفّيت منذ فترة، فقد استعجل المفاوضات في شأن ذلك الاتحاد الجديد.

«- إذا كانت شقيقتكَ ترضى بأن تصبح زوجتي، قال، فلن أرغمها على العيش في حانوتي في فوشيمي. سأصلح منزلي عند بحيرة أوغورا، وأضيف إليه جناح الشاي. ستعيش فيه وفق ما يحلو لها».

«أظهر نفسه ميسوراً وقدّم وعوداً سخيّة بحيث أن شقيق أويو- ساما، المناصر لهذا الزواج، نصح أخته بالقبول.

«- إنّك منعمة بثروة مذهلة. لِمَ لا تتزوجين هذا الرجل وتضعين حداً لجميع الخنازير؟»

«قام حتى بزيارة لوالدي ولأوشيزو ليضغط عليهما وينال مساعدتهما.

«- يجب أن نستغلّ ميل أويو الطبيعي إلى حياة الرفاه وإقناعها بقبول ذلك التاجر. ستكون أفضل وسيلة لوضع حدّ للضجيج السيّء النيّة الذي ينتشر».

«لو عاند أبي، لما بقي لأويو- ساما وله، سوى حلّ الانتحار المزدوج. فكّر في ذلك أكثر من مرّة، بيد أنّه كان يتردّد أمام فكرة التخلّي عن أوشيزو. كان يعرف، في صميمه، أنها ستكون طريقة مؤلمة في إظهار عرفانه بالجميل، ومن جهة ثانية كان والدي يأبى انتحاراً ثلاثياً.».

«حزرت أوشيزو ذلك وكانت تخشى أكثر من أي شيء آخر مهرب التضحية المزدوجة ذاك، «الشينجو» الكلاسيكي. «ـ إذا كنتما تريدان الموت كلاكما، قالت، فإنني أتوسّل إليكما، خذاني معكما. إذا ما تركتماني وحيدة، فأيّة حياة بائسة ستكون حياتي!».

«لأول مرّة، ظهرت الغيرة في أقوالها. إنّما كانت هنالك مشاعر والدي العميقة، أقوى من كل شيء ووحدها قادرة على اتخاذ القرارات. ينبغي أن تعيش امرأة من وزن أويو ـ ساما في الرفاه، في مناخ ودّي، محاطة بخادمات عديدات. لقد وُلدت لهذه الحياة وسنحت لها الفرصة أخيراً في الحصول عليها. هذا الشعور تغلّب على ما عداه. وقال ذلك لأويو ـ ساما:

«ـ إنكِ أرفع منّي بكثير بحيث أرتكب خطيئة في جرّك معي إلى الموت. يمكن لامرأة عادية أن تختفي حبّاً، لكن السماء حبتك بالكثير من الجمال والعطاءات، بحيث أن رفضك الإراديّ للحياة، سوف يجعلك لا تستحقينها. إذهبي عيشي، إذن، أتوسّل إليك، في تلك الفيللا الأميريّة عند بحيرة أوغورا. تذكّري أنك بعيشك حياة كهذه تهبينني فرحاً أكبر ممّا لو متنا معاً. أعرف أنك لن تلمسي في كلماتي علامة تبدّلٍ في مشاعري نحوك أو خوفاً من الموت. لديك الكثير من السخاء لئلاّ تسيئي الظنّ، ولا خشية لديّ في هذا الشأن. لقد حدّثتك بلا إخفاء. أنتِ التي ولدت أنوفة النفس وشجاعة، ستنسين في سهولة كائناً مثلي».

«استمعت إليه أويو ـ ساما بصمت. وعندما انتهى، سقطت دمعة واحدة من مقلتيها، ثم رفعت رأسها ثانيةً وأظهرت له وجهاً مضيئاً».

«ـ أنت على حقّ، قالت، سأفعل ما تقوله لي».

«أجابت في بساطة، دون ارتباك ودون اعتذار.

«ـ لم أعرف أبداً، قال لي أبي، لطافة ونبلاً بهذا القدر».

«استقرّت أويو ـ ساما، بعد زواجها ثانيةً، في فيللا تاجر فوشيمي. ولم يرغب فيها هذا الهاوي العتيق للمتع، إلاّ من باب الفضول. سرعان ما شفى غليله، وما عاد يزورها أبداً عند ضفّة بحيرة أوغورا. ومع ذلك فهم أنه ينبغي اعتبار أويو ـ ساما كحلية في داره. وفّر لها أكبر رفاه ممكن ولم يقتّر عليها في المصاريف».

«في الفترة نفسها طارت ثروة كوزوبيه وثروة أبي. كما ذكرت لك من قبل، انتقلنا بعد وفاة والدتي سريعاً للعيش في مخيّم يفضي إليه شارع صغير. إذ أنني ـ ها أنا أجيب عن سؤالك للتوّ ـ إبن أوشيزو. . . فبعد افتراق والدي عن أويو ـ ساما، اجتاحه عرفان الجميل وهو يفكّر في العناية الحنونة التي أحاطته بها أوشيزو طوال تلك التجربة المديدة، وأصبحت زوجته بالفعل. . .».

مكث الرجل صامتاً، بعد انتها قصّته، كما لو أرهقه التعب.

ـ أشكرك للغاية على بوحك، قلت له. أفهم الآن لِمَ كان والدك يتردّد إلى منزل ضفّة بحيرة أوغورا ويصطحبك معه إلى هناك. أفهم أيضاً، أنك مذ ذاك تزور المكان كل سنة لتأمُّلِ القمر! هذه الليلة قلت لي، قبل أن تبدأ قصتك، على ما أعتقد، إنك كنت في طريقك لزيارته.

ـ أجل، قال، ما فتئت حتى اليوم أزوره، أيام البدر

الخمسعشريّ. قد أعثر مجدداً على أويو ـ ساما وهي تلعب الكوتو، وصبيّة تلتفت إلى الوراء راقصةً. . .

دُهشت قليلاً، وسألته:

ينبغي أن تكون أويو ـ ساما مسنّة جداً، اليوم؟ أليست في الثمانين تقريباً؟

لكنني ما عدت شاهدت سوى القصبات مهتزّة تحت مداعبة الهواء، ولا يسعني القول في أيّة لحظة كان اختفى محدِّثي، كما لو أنّ ضوء القمر جذبه.

جونيشيرو تانيزاكي أحد أبرز الكتّاب اليابانيين الذين استوحوا تقاليد الماضي الياباني ومزجوه بالتقاليد الغربيّة. ولد عام ١٨٨٦ في طوكيو في كنف أسرة تهتمّ بأعمال الطباعة والنشر. ودرس الأدب الياباني. وفي عام ١٩١٠ نشر أولى كتاباته (مسرحيّة من فصل واحد) في إحدى المجلّات الأدبيّة التي ساهم في تأسيسها.

من أعماله: «فتاة اسمها ناوومي»، «طعم الحريق»، «يوميّات عجوز مجنون»، «أربع أخوات»، «المفتاح»، «مديح الظلّ» وغيرها. توفي جونيشيرو تانيزاكي في ٣٠ تموز/ يوليو عام ١٩٦٥.

تصميم الغلاف نجاح طاهر